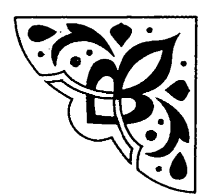
سلسلة الرسائل العلمية (٦٦)

السنن الإلهية في الظلم

د. سعد بن دبيجان الشلاقي الشمري







أصل هذا الكتاب

رسالة ماجستير بحث تكميلي من

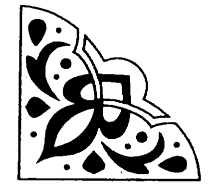
جامعة الإمام محمد بن سعود

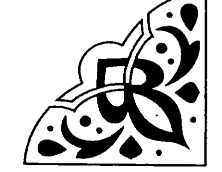
كلية الشريعة في الرياض قسم الثقافة الإسلامية

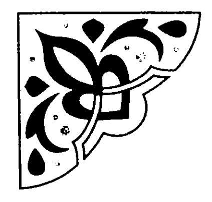
بإشراف د. إبراهيم طلبة حسين عبد رب النبي

عام ١٤٣٢/ ١٤٣٣











فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشمري ، سعد دبيجان
السنن الإلهية في الظلم
سعد دبيجان الشمري - ط 1 - جدة ، 1445 هـ
152 ص؛ 17×24 سم
(الرسائل العلمية 66)

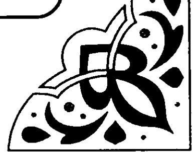
رقم الإيداع: 1445/3900
ردمك: 978-603-8322-43-7

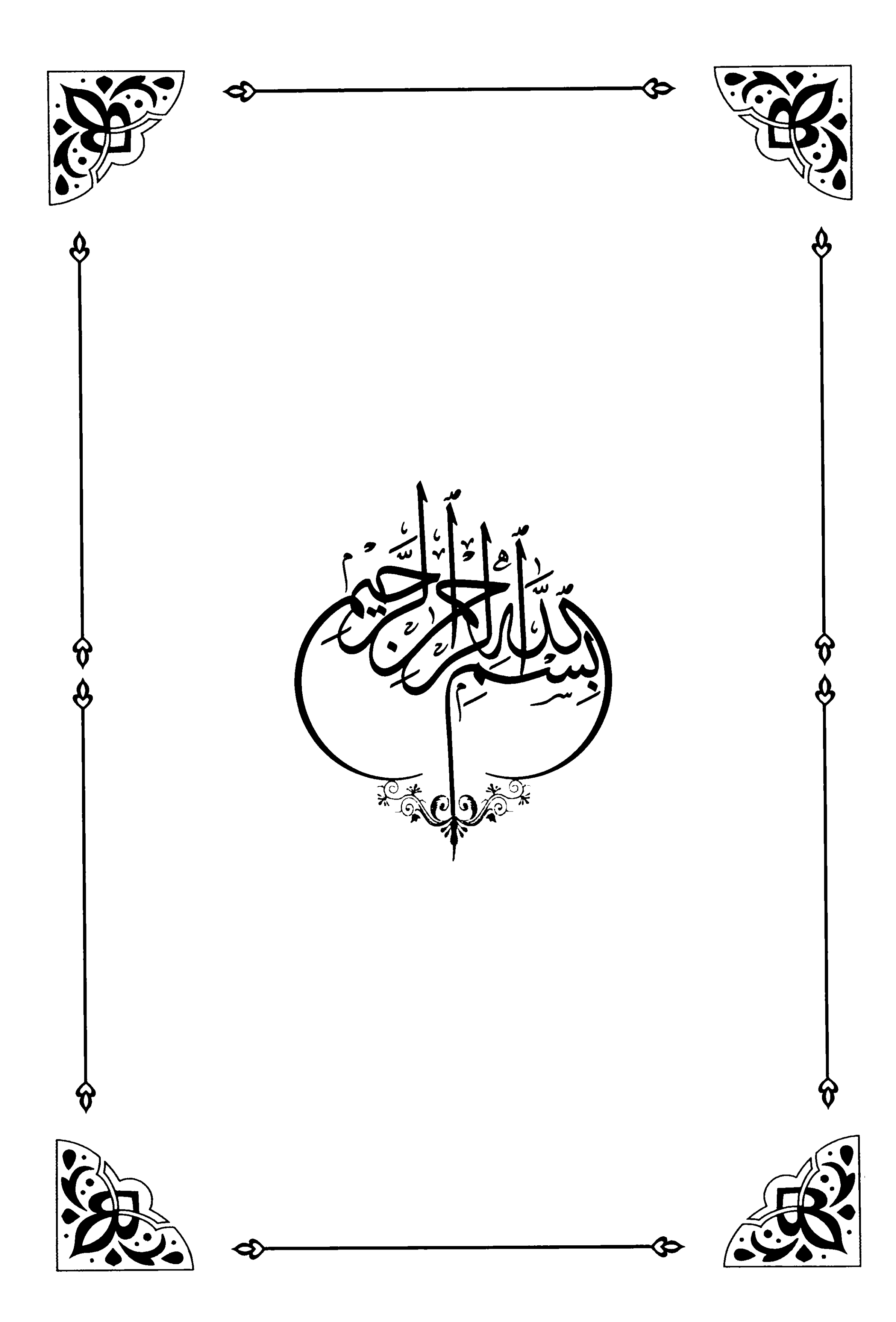
الطبعة الأولى
2023م/ 1445هـ



جدة - السعودية
الإدارة: 966505318767+ - المبيعات: 966537254939+

daralawraq daralawraq@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

● أما بعد.

فإن من عظيم تدبير الله سبحانه لهذا الكون، ومن حكمته البالغة أن جعل الحياة تقوم على سنن ثابتة مطردة لا تتبدل ولا تتغير إلا بمشيئته سبحانه، سواء كانت هذه السنن في الكون المادي المحسوس، كتعاقب الليل والنهار، أو في الأفراد والمجتمعات والأمم، فعلو الأمم وقوتها تسير وفق سنن ثابتة، وكذلك سقوطها وزوالها، ومثل ذلك ينطبق على الأفراد والمجتمعات في كل زمان ومكان.

ولأهمية السنن في تفسير التاريخ، وفهم الواقع، واستشراف المستقبل؛ عني بها علماء الإسلام في كتب التفسير والتاريخ، فبثوها في كتبهم، ثم أُفرد التأليف فيها حديثًا لأهميتها ولحاجة المسلم إليها.

ومن هذه السنن التي نحتاجها في حياتنا؛ السنن الإلهية في الظلم، فإذا فهم العباد سننه تعالى في الظلم، استطاعوا أن يتعاملوا مع الظلم، وأن يحذروا منه، واستطاعوا كذلك أن يقاوموا الظلمة وفق هذه السنن، حتى يكون لهم ما يرجون، فإن الله لم يجعلها ثابتة إلا لنهتدي بهديها، ونسير في ركابها، ولأن معارضتها معارضة لنواميس الكون التي أودعها الله سبحانه فيه.

• أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تكمن أهمية الموضوع، وأسباب اختياري له في النقاط التالية:

١- السنن الإلهية مهمة لقراءة التاريخ وتفسيره واستنباط العبر منه، وفهم الحاضر وتحليله، واستشراف المستقبل وتصور ملامحه، وكيفية التعامل معه، وهذا لا يتم إلا بمعرفة السنن الإلهية، فثباتها واطرادها وعدم تبدلها، يجعلها محورًا مهمًا في الماضي والحاضر والمستقبل.

٢- خطورة الظلم وأثره على الشعوب والمجتمعات، يجعل من المتحتم علينا معرفة سنن الله في وقوعه، وسننه سبحانه في رفعه، وسننه في تعامله مع الظالمين.

٣- تعدد السنن المتعلقة بالظلم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر (الإملاء، الإمهال، الاستدراج، الإهلاك، الجزاء،...) وغيرها، فالقرآن والسنة حويا الكثير من السنن، كما أن الله كرر في كتابه العزيز الكثير منها، في أكثر من حدث، وأكثر من قصة، وهذا يدل على أهميتها، وعظيم حاجتنا لها.

٤- حاجتنا لمعرفة هدي السنن الإلهية في التعامل مع الظلم والظالمين، فقد جرت السنن الإلهية على الظالمين في الماضي، وهي جارية عليهم في الحاضر والمستقبل، فمعرفتها تدلنا على الطريقة الصحيحة في التعامل معهم.

• الدراسات السابقة:

أثناء بحثي عن الدراسات السابقة لم أجد من بحث في السنن الإلهية في الظلم على وجه الخصوص، وكل ما وجدته ينقسم إلى قسمين؛ إما في السنن الإلهية عمومًا، أو في الظلم عمومًا بعيدًا عن السنن الإلهية، ومن هذه الدراسات المهمة:

١- سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، د. حسن بن صالح الحميد، طباعة دار الفضيلة عام ١٤٣٢هـ، يقع في ٧٣٢ صفحة، وهي رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع القصيم سابقًا، وقد كان للمؤلف في هذا الكتاب وقفات موفقة مع سنن الله في الأمم، وذلك من خلال الآيات القرآنية، فتناول خصائص سنن الله في الأمم ومنهج القرآن في عرضها، ثم تحدث عن مجالات سنن الله في الأمم كالحماية، والوقاية، والابتلاء، والتمحيص وغيرها، ثم عرج إلى ذكر آثار رعاية هذه السنن وعواقب الإعراض عنها، وختم ذلك بالحديث عن فقه هذه السنن.

٢- السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، د. محمد أمحزون، يقع في ثلاث مجلدات، طباعة دار طيبة، وقد خصص المجلد الأول في كتابه لتأصيل السنن، والاستدلال عليها، وبيان خصائصها وطريقة استنباطها، وأهميتها، أما بقية الكتاب فمما تميز فيه المؤلف حيث ملأه بالنماذج التطبيقية على السنن الإلهية في التاريخ، كما تميز بتقسيم السنن إلى سنن تقع على المسلمين وأتباع الأنبياء، وسنن تخص الكافرين، كما أن المؤلف توسع في عرض السنن ومنها سنن الله في الظالمين، ودلل عليها مع تطبيقاتها في التاريخ والقرآن، ويعتبر الكتاب أوسع ما ألف في السنن الإلهية حتى الآن - حسب علمي -، وقد استفدت منه كثيرًا في الجانب التطبيقي، والاستقراء التاريخي.

٣- السنن الإلهية في الأفراد والمجتمعات، د. عبدالكريم زيدان، طباعة دار الرسالة عام ١٤١٣هـ، ويقع في ٢٠٠ صفحة، ويعتبر من أوائل من صنف في السنن الإلهية على وجه الخصوص، وقد تميز الكتاب بحصر السنن الخاصة بالأفراد، والسنن الخاصة بالمجتمعات، مع مقدمة مختصرة عن خصائص السنن وأهميتها،

كما أنه أفرد فصلًا خاصًا في كتابه في دراسة السنن الإلهية في الظلم والظالمين، وقد استفدت منه كثيرًا مع اختصارٍ فيه.

وهذه الدراسات جميعها في السنن الإلهية بعمومها، تأصيلًا وتطبيقًا، وليس منها ما هو خاص في السنن في الظلم.

٤- الظلم في ضوء القرآن الكريم، بحث دكتوراة - غير مطبوع - في جامعة الحاج لخضر - باتنة في الجمهورية الجزائرية، للدكتورة نورة بنت حسن، والبحث يقع في ٤٣٠ صفحة، تميز البحث بالدراسة التأصيلية للظلم في ضوء القرآن الكريم، وتناولت الباحثة الظلم من حيث حقيقته وأنواعه وأسبابه وآثاره ووسائل الوقاية منه، وقد استفدت من البحث من الناحية التأصيلية، إلا أنه لم يتطرق لجانب السنن الإلهية الذي قصدته في بحثي.

٥- إنكار الظلم في ضوء الكتاب والسنة، رسالة ماجستير - غير مطبوعة - من جامعة النجاح في غزة، قدمها الطالب: محمد إبراهيم أحمد سيف، وتقع في ١٧٠ صفحة، وقد ركز الباحث في بحثه على الظلم في المجتمعات البشرية، وأنواع الظلم، ودواعي الظلم، وعقوبة الظالم وأثره، ومما تميز فيه بحثه دواعي الظلم في المجتمعات البشرية عمومًا.

وهذه الدراسة والتي سبقتها، كان موضوعهما في الظلم بعمومه، ولم يتطرقا إلى السنن الإلهية في الظلم، الذي اختص به بحثي «السنن الإلهية في الظلم».

● **منهج البحث:**

تطلب إعداد هذا البحث اتباع المنهج التكاملي الذي يبرز فيه:

١- المنهج التأصيلي عند الاستدلال على السنن، وبيان ورودها في كلام الله

وكلام رسوله، وكلام أهل العلم.

٢- والمنهج الاستقرائي عند حصر السنن الربانية واستنباطها من القرآن.

٣- والمنهج التحليلي عند بيان آثار هذه السنن على الفرد والمجتمع.

● **وأما من الناحية الفنية فسيكون المنهج وفق التالي:**

١- جمع المادة العلميّة من مصادرها الأصليّة ومظانها المختلفة قدر الاستطاعة.

٢- عزو الآيات القرآنية الكريمة بذكر السورة ورقم الآية بعد ذكر الآية مباشرة.

٣- تخريج الأحاديث النبوية والحكم على ما ورد في غير الصحيحين.

٤- الحرص على التزام الأمانة العلمية في عزو الآثار والآراء إلى أصحابها.

٥- ترجمة الأعلام غير المشهورين والواردة أسماؤهم في صلب البحث، ترجمة موجزة.

٦- شرح المصطلحات والكلمات الغريبة.

٧- تسجيل أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها في خاتمة البحث.

٨- ذيلت البحث بفهارس للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأعلام المترجم لهم، والمصادر والمراجع، والمحتويات.

● **تقسيمات البحث:**

وتشتمل على مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة وفهارس.

المقدمة وفيها:

- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

- أهداف الموضوع.

- الدراسات السابقة.

- منهج البحث.

- تقسيمات البحث.

التمهيد: تعريف مصطلحات البحث.

أولًا: تعريف مصطلحي السنن، والظلم في اللغة.

ثانيًا: تعريف مصطلحي السنن، والظلم في الاصطلاح.

المبحث الأول: أهمية العلم بالسنن الإلهية في الظلم.

المطلب الأول: أهمية العلم بالسنن الإلهية في الظلم.

المطلب الثاني: خصائص السنن الإلهية في الظلم.

المبحث الثاني: أنواع السنن الإلهية في الظلم.

المطلب الأول: السنن الإلهية في الظالم.

المطلب الثاني: السنن الإلهية في المظلوم.

المطلب الثالث: السنن الإلهية العامة في الظلم.

المبحث الثالث: تطبيقات السنن الإلهية في الظلم.

المطلب الأول: تطبيقات السنن الإلهية في الظلم في تاريخ الأمم السابقة.

المطلب الثاني: تطبيقات السنن الإلهية في السيرة النبوية.

المطلب الثالث: تطبيقات السنن الإلهية في العصر الحديث.

المبحث الرابع: آثار السنن الإلهية في الظلم.

المطلب الأول: آثار السنن الإلهية على الأفراد.

المطلب الثاني: آثار السنن الإلهية على المجتمعات.

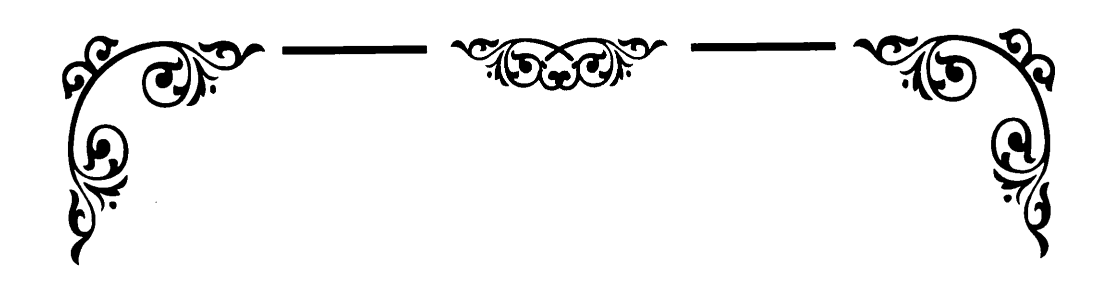
الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وفي الختام أتقدم بالشكر والدعاء لمشرفي وشيخي الدكتور إبراهيم طلبة حسن عبد رب النبي والذي غمرني بحسن خلقه، وجميل توجيهه، ولجميع المشايخ والأساتذة في قسم الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الذين استفدت منهم في الدراسة المنهجية استفادة كبيرة، أحمد الله عليها، فشكر الله لهم وجزاهم عنا خير الجزاء.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

كتبه الطالب:

سعد بن دبيجان الشمري



التمهيد:

تعريف مصطلحات البحث

ويشمل:

أولا: تعريف مصطلحي السنن والظلم في اللغة.

ثانيا: تعريف السنن الإلهية في الظلم اصطلاحا.



أولًا: تعريف مصطلحي السنن، والظلم في اللغة:

١ - تعريف السنة في اللغة:

السنن: جمع سنة، والسنة وردت في لغة العرب على عدة معانٍ وهي:

- **المعنى الأول: التوالي والاطراد:**

قال ابن فارس وهو معنى اتفق عليه جمع من أهل اللغة[١]، ومن ذلك قولهم: (سننت الماء بمعنى صببته صبًا متتابعًا بدون تفريق)، وقولهم: (جاءت الرياح سنائن) أي متتابعة.

- **المعنى الثاني: الطريقة والسيرة:**

قال ابن منظور: هو الأصل في لفظ السنة[٢]، وهو معنى أجمع عليه أهل اللغة كذلك[٣].

- **المعنى الثالث: الصقالة والملامسة:**

قالت العرب: رجل مسنون الوجه: أي مصقول، وقالوا: سن الحديد بالمسن: أي حده وصقله، وقالوا: سن الإبل سنًّا: أي أحسن رعيها والقيام عليها حتى كأنه صقلها، وقالوا سن أضراسه سنًا: أي سوكها كأنه صقلها[٤].

---

(١) ابن فارس «معجم مقاييس اللغة» (٦٠/ ٣)، الجوهري «الصحاح» (٥/ ٢١٤١)، الزمخشري «أساس البلاغة» ص(٢٢١) ابن منظور «لسان العرب» (٣/ ٢١٢٦)، الفيروز آبادي «القاموس المحيط» (٤/ ٢٣٧)

(٢) «لسان العرب» (٣/ ٢١٢٦).

(٣) «الصحاح» (٥/ ٢١٣٧)، «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٦٠)، «لسان العرب» (٣/ ٢١٢٢)، «الأساس في البلاغة» ص(٢٢٠)، «القاموس المحيط» (٤/ ٢٣٧).

(٤) «لسان العرب» (٣/ ٢١٢٣)، «القاموس المحيط» (٤/ ٢٣٧).

● **المعنى الرابع: الوجهة والقصد:**

قالت العرب: امض على سنتك وسننك: أي على وجهك، وقالوا جاء سنن الخيل: أي لا يرد وجهه، وقالوا: تنح عن سنن الخيل: أي وجهه[١].

● وعند النظر لهذه المعاني التي أوردتها كتب المعاجم واللغة، نجد أن هناك قاسمًا مشتركًا يجمعها، وهو معنى الطريقة والسيرة، فالمعنى الأول: التوالي والاطراد هو من مقتضيات السيرة، فلا تكون السيرة إلا بالتوالي والاطراد، والمعنى الثالث: الصقالة والملامسة هو اطراد واستقامة في الجمادات والمحسوسات، أما المعنى الرابع: الوجهة والقصد، فلابد لكل سيرة وطريقة من وجهة وقصد.

● ويتبين لنا أن المعنى الأصلي للسنة هو الطريقة والسيرة، وعلى هذا تظافرت أقوال أهل اللغة، ومن أقوالهم في هذا المعنى:

١ - **قال ابن منظور:** (السنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة)[٢]، وقال في موضع آخر: (السنة: الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل فلان من أهل السنة، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة، وهي مأخوذة من السنن، وهو الطريق)[٣].

٢ - **قال الزمخشري:** (سن سنة حسنة: طرّق طريقة حسنة)[٤].

٣- **قال ابن فارس:** (السنة هي السيرة، وسنة رسول الله ﷺ هي سيرته، وإنما سميت بذلك لأنها تجري جريًا)[٥].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة (٣/ ٦١)، «الصحاح» (٥/ ٢١٣٩)، «أساس البلاغة» ص(٢٢٠) «لسان العرب» (٣/ ٢١٢٣)، «القاموس المحيط» (٤/ ٢٣٧).

(٢) «لسان العرب» (٣/ ٢١٢٤).

(٣) المرجع السابق

(٤) «أساس البلاغة» ص(٢٢١)

(٥) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٦١)

٤- وقال الزبيدي: (السنة حسنة كانت أو قبيحة)[١].

٢- تعريف الظلم في اللغة:

يدور معنى الظلم في لغة العرب على عدة معانٍ هي:

● **المعنى الأول**: الظلمة وهي خلاف الضياء والنور، وجمعه ظلمات، قال ابن فارس: (الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما: خلاف الضياء والنور، والآخر: وضع الشيء غير موضعه تعدّيًا)[٢].

● **المعنى الثاني**: وضع الشيء في غير موضعه، قال الراغب الأصفهاني: (والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بزيادة، أو نقصان، وإما بعدول، عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظلمت السقاء: إذا تناولته في غير وقته، ويسمى ذلك باللبن الظليم)[٣]، وقال الجرجاني: (الظلم وضع الشيء في غير موضعه)[٤].

● **المعنى الثالث**: التصرف في ملك الغير أو الجور ومجاوزة الحد، وقال ابن الجوزي: (الظلم التصرف فيما لا يملك المتصرف التصرف فيه)[٥]، وقال ابن منظور في لسان العرب: (أصل الظلم الجور ومجاوزة الحد)[٦]، وقال الراغب في المفردات: (الظلم يقال في مجاوزة الحق يجري مجرى نقطة الدائرة، ولذا قيل لآدم في تعديه:

---

(١) الزبيدي «تاج العروس» (٩/ ٢٤٤).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٤٦٨).

(٣) «المفردات» ص(٣١٥).

(٤) الجرجاني «التعريفات» ص(١٨٦).

(٥) ابن الجوزي «نزهة الأعين النواظر» ص(٤٢٦).

(٦) «لسان العرب» (١٢/ ٣٧٣).

ظالم، وفي إبليس: ظالم، وإن كان بين الظلمين بون بعيد)[١].

● **المعنى الرابع**: الميل عن القصد، قال الأزهري: (الظلم: الميل عن القصد وسمعت العرب تقول: الزم هذا الصوب ولا تظلم منه شيئًا أي لا تجز عنه)[٢].

● **المعنى الخامس**: المنع، قال الفراهيدي: (لقيته أول ذي ظلم، وهو إذا كان أول شيء سد بصرك، أي منعه)[٣]، قال الأزهري: (الظلمة: المانعون أهل الحقوق حقوقهم، يقال ما ظلمك عن كذا أي ما منعك)[٤].

● **المعنى السادس**: النقص، قال العسكري: (وأصل الظلم نقصان الحق)[٥]، قال الأزهري: (ويكون الظلم بمعنى النقصان)[٦].

● ويتبين من العرض السابق لمعاني الظلم في لغة العرب، أن أصل لفظة الظلم هو: وضع الشيء في غير موضعه، وكل ما عدا ذلك من المعاني هي فروع عن هذا المعنى، وبين ذلك الراغب الأصفهاني فيما سقناه من قوله: (والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بزيادة، أو نقصان، وإما بعدول، عن وقته أو مكانه)[٧].



(١) الفيروز أبادي «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٥٤١).

(٢) الأزهري: «التهذيب في اللغة» (١٤/ ٣٨٧).

(٣) الفراهيدي «العين» (٨/ ١٦٢)

(٤) الأزهري «التهذيب» (١٤/ ٣٨٧).

(٥) العسكري «الفروق في اللغة» ص(٢٦٦).

(٦) «التهذيب» (١٤/ ٣٨٨).

(٧) «المفردات» ص(٣١٥).

ثانيا: تعريف السنن الإلهية في الظلم اصطلاحًا.

إن مصطلح السنن الإلهية في الظلم مصطلح مركب من مصطلحين: مصطلح السنن الإلهية، ومصطلح الظلم، ولكل مصطلح معانيه الاصطلاحية، وهذا ما سأتناوله على وجه التفصيل في هذا المبحث.

١ - تعريف السنن الإلهية اصطلاحًا:

تنوعت التعريفات للسنن بحسب استعمالها في العلوم الشرعية، فالسنن في الفقه تختلف عن السنن في الحديث والتفسير والأصول، وما نحن بصدده في هذا المبحث هو المعنى الاصطلاحي للسنن الإلهية بمعناها الشامل العام، وليس معناها الجزئي التفصيلي بحسب كل علم.

- **فمنهم من قرن السنن الكونية بسنن الله في الإنسان، فقالوا:**

١ - «السنن هي القوانين المطردة الثابتة التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وتحكم حركة التاريخ، وتتحكم بالدورات الحضارية»[1].

٢ - «السنة الإلهية هي منهج الله في تسيير هذا الكون وعمارته وحكمه، وعادة الله في سير الحياة الإنسانية، وعادته في إثابة الطائعين، وعقاب المخالفين، طبق قضائه الأزلي، على مقتضى حكمته وعدله»[2].

٣- «مجموعة من القوانين والقواعد الثابتة والمطردة التي تحكم حياة الخلق وحركة التاريخ في نظام دقيق ترتبط فيه المقدمات ــ سلبًا وإيجابًا ــ بالنتائج

(١) عمر عبيد حسنة «مراجعات في الفكر والدعوة والحركة» ص (١٩).

(٢) شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب «السنن الإلهية في الحياة الانسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة» ص (٩/ ١).

بمقتضى حكمة الله تعالى وعدله»[١].

٤- «هي مجموعة القوانين التي سنها الله ﷻ لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعًا، على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»[٢].

٥- «إن السنن الإلهية عادات الله وكلماته التي لا مبدل لها في الكون، وهي مستنبطة من سلوك الظواهر نفسها، المتسمة بالاطراد والشمول والثبات»[٣].

● **ومنهم من قصر التعريف بالسنن الإلهية في الإنسان، فردًا كان أو جماعة، مسلمًا كان أو كافرًا، فقالوا:**

١- «إن السنن هي النواميس التي تحكم البشر وفق مشيئة الله الطليقة، وأن ما وقع منها في الماضي سيقع منها في الحاضر، إذا أصبحت حال الحاضرين مثل حال السابقين»[٤].

٢- «هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناءً على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة»[٥].

٣- «هي أقدار الله وعهوده الثابتة ووعوده الحقة، وكلماته التامات، التي لا تبديل لها ولا تحويل يعتريها ولا تغيير يشملها، ولا تحابي أحدًا، مؤمنًا كان أم كافرًا»[٦].

---

(١) حسين شرفة «سنن الله في إحياء الأمم» ص (٥٧).

(٢) أحمد كنعان «أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق» ص (٥٢).

(٣) محمد أمحزون «بحث بعنوان: الإعجاز السنني في القرآن» في المؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن في الكويت عام ١٤٢٧هـ.

(٤) «في القرآن» (١/ ٤٧٩).

(٥) عبدالكريم زيدان «السنن الإلهية» (١٥).

(٦) رشيد كهوس «السنن الإلهية في السيرة النبوية» ص (٥٣).

٤- «هي ما اطرد من فعل الله في معاملة الأمم بناءً على أفعالهم وسلوكهم وموقفهم من شرع الله وأثر ذلك في الدنيا والآخرة»[١].

● بعد هذا الاستعراض لأبرز تعريفات السنن الإلهية اصطلاحًا نجد أن بعض المعرفين تناول السنن بمفهومها الشامل في الكون والإنسان، وبعضهم اقتصر على السنن الإلهية في الإنسان، وكلٌ عرض التعريف الذي يخدم السياق الذي يتحدث عنه.

٥- والتعريف المختار - والله أعلم - هو تعريف مجدي عاشور، وهو قوله: «السنن الإلهية هي: ما اطرد من فعل الله في معاملة الأمم بناءً على أفعالهم وسلوكهم وموقفهم من شرع الله وأثر ذلك في الدنيا والآخرة»[٢].

فإنه على اختصاره وإيجازه كان جامعًا لمعنى السنن الإلهية، متضمنًا لما تختص به من خصائص كالربانية والثبات والاطراد.

تعريف الظلم اصطلاحًا:

أما تعريف الظلم اصطلاحًا فلا يخرج عما ذكرناه في التعريف اللغوي، فقد حوى العديد من التعريفات الاصطلاحية، وأرجحها:

تعريف الراغب الأصفهاني، وهو قوله: «والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بزيادة، أو نقصان، وإما بعدول، عن وقته أو مكانه»[٣].

---

(١) مجدي عاشور «السنن الإلهية في الأمم والأفراد أصول وضوابط» (٣٦).

(٢) المرجع السابق

(٣) «المفردات» ص (٣١٥).

● **أما الظلم في كتاب الله فقد أطلق على معاني عديدة، ومنها:**

١- الكفر قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٧] قال ابن جرير الطبري: «وهذا القول وإن خرج مخرج الخبر فإنه وعيد منه للكافرين به وبرسله..»[(١)].

٢- الشرك قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، والآية صريحة في تعريف الظلم بالشرك.

٣- الذنوب والمعاصي من غير الشرك، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [الطلاق: ١]، فالآية عدت كل تعد لحدود الله ظلم، وتعدي حدود الله يدخل فيه المعصية والفسق.

٤- ظلم الناس بغير حق، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ﴾ [الإسراء: ٣٣]، فدلت الآية على الظلم المتعدي.

٥- الإضرار بالنفس، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، فدلت الآية على الظلم اللازم، وهو ظلم النفس.

٦- الجحود، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣]، أي فجحدوا بها[(٢)].

٧- النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص[(٣)].

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ٢٩٣).

(٢) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٥٣)

(٣) «تأويل مشكل القرآن» ص (٣٥٩).

٨- السرقة، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف: ٧٥].

وقد أحسن الباحث سعيد الرحمن خاطر زمان في بحثه «الظلم أنواعه وآثاره في ضوء القرآن» في تحرير مفهوم الظلم[١].

● وهذا التعدد سببه التنوع، فكل الصور التي ذكرت في القرآن يشملها تعريف الراغب الأصفهاني، وهو التعريف المختار لاشتماله على جميع صور الظلم، وهو قوله أن: «الظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بزيادة، أو نقصان، وإما بعدول، عن وقته أو مكانه»[٢].

● ويتبين لنا بعد تعريفي السنن والظلم أن المراد بالسنن الإلهية في الظلم هي:

هي ما اطرد من فعل الله في معاملة الأمم الظالمة والمظلومة بناءً على أفعالهم وسلوكهم وموقفهم من شرع الله ﷻ.



(١) انظر: سعيد الرحمن خاطر زمان «الظلم أنواعه وآثاره في ضوء القرآن» رسالة ماجستير في جامعة الإمام ص(٢٠) لم تطبع حتى إعداد البحث.

(٢) «المفردات» ص (٣١٥).



المبحث الأول:
أهمية العلم بالسنن الإلهية في الظلم وخصائصها

ويشمل:

المطلب الأول: أهمية العلم بالسنن الإلهية في الظلم.

المطلب الثاني: خصائص السنن الإلهية في الظلم.



للسنن الإلهية أهمية كبيرة في الإسلام، ويتبين ذلك من المساحة الكبرى التي شغلتها من كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وخصوصًا عند عرض أخبار السابقين، وفي هذا المبحث سأسلط الضوء على أبرز ما يبين أهمية السنن الإلهية في الظلم، وما يميزها من خصائص تخصها دون غيرها.



المطلب الأول:
أهمية العلم بالسنن الإلهية في الظلم

للسنن الإلهية أهمية كبرى، وتتبين أهميتها من خلال النقاط التالية:

١- نسبة السنن الإلهية لله سبحانه، يقول تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٧]، واقترانها باسمه ﷻ، وهو ما يبين مكانتها، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٢]، فالسنن الإلهية من أفعال الله، والعلم بها أشرف العلوم وهو العلم بالله سبحانه والعلم بأفعاله ﷻ.

٢- أمر الله المتكرر بالاعتبار بأحوال الظالمين وعاقبتهم، ولذا أمرنا الله ﷻ بالسير في الأرض، والنظر في الخلق، حتى نعلم سننه في الظالمين، ونعلم قدرته سبحانه وتعالى، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وتتجلى في السنن الإلهية خلاصات تجارب الأمم المظلومة مع كل من ظلمها، ونتائج أفعال الظالمين، وعاقبة أمرهم، والعلم بها يجنب الأمم إعادة الخطأ، وتكرار الزلل.

٣- الوعيد بالسنن الإلهية، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الكهف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ولا يتوعد الله بها إلا لتحقق وقوعها، وعظيم شأنها.

٤- كثرة ورود قصص الظالمين وعقوبتهم في القرآن، وأسباب هلاكهم، وتكرارها مفصلة ومجملة، يدل على أهمية العلم بها، وعظيم مكانتها في كتاب الله سبحانه، واشتداد حاجة الناس إليها، فظالم الأمس هو ظالم اليوم، وسنن الله ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير.

٥- فهم السنن الإلهية من فهم الدين، فهي مما دل عليه كلام الله وسنة رسوله ﷺ، فقد قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩]، قال الألوسي رحمه الله تعالى: «والمراد من ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ما يتعلق بأمور الدين؛ أي بيانًا بليغًا لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم»(١)، وقال محمد رشيد رضا رحمه الله: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة؛ لنستمد ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها، أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه؛ كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال وبينها العلماء بالتفصيل»(٢).

٦- عناية العلماء بالسنن الإلهية وحثهم على الاهتمام بها، وقد عد الغزالي رحمه الله العلم بالسنن الإلهية من القسم المحمود فقال: «وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى

---

(١) «تفسير الألوسي» (١٤/ ٢١٤).

(٢) «تفسير المنار» (٤/ ١٤٠).

سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم»(١).

٧- إن الحديث عن السنن الإلهية يعد منارة للمسلم اليوم في ظلمات هذا العصر بما فيه من تعقيدات ومعضلات تجعل الحليم حيرانًا، غير أن المسلم الواعي الذي يتعهد كتاب ربه بالقراءة والعناية والتدبر والفهم هو وحده القادر على أن يكون واعيًا ومستوعبًا لكل ما يجري في هذا الكون من أحداث، يقول محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ في المنار: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننًا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم، لنستلهم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل عملًا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها»(٢).

٨- انتشار الظلم وتنوعه وتعدد أسبابه، ووقوع الأمة تحت وطأته، يجعل للسنن الإلهية في الظلم أهمية خاصة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإنسان خلق في الأصل ظلومًا جهولًا، ولا ينفكّ عن الجهل والظّلم إلّا بأن يعلّمه اللّه ما ينفعه، ويلهمه رشده، فمن أراد به خيرًا علّمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما

---

(١) أبو حامد الغزالي «إحياء علوم الدين» (١/ ٤٢).

(٢) «تفسير المنار» (٤/ ١١٥).

علّمه فخرج به عن الظّلم ومن لم يرد به خيرًا أبقاه على أصل الخلقة. فأصل كلّ خير هو العلم والعدل، وأصل كلّ شرّ هو الجهل والظّلم»[١]، فمن الأهمية بمكان أن نتدارس ونتأمل سنن الله سبحانه في الظلم والظالمين، حتى نهتدي بهديها، ونسير في ركابها، حتى يرفع الظلم، وينشر العدل.

٩- السنن الإلهية مهمة في فهم التاريخ، وأصل في تفسيره، ومعرفة قواسمه المشتركة، ومفاصله المتكررة، فعند قراءة سير الأنبياء وقصصهم مع أقوامهم في ضوء السنن الإلهية، تتضح لنا الأسباب الحقيقية لوقوع الظلم وتسلط الظالمين، وتتضح بجلاء صور الظلم وطرائق الظالمين فتكاد تكون وسائلهم وأساليبهم متكررة بحسب حالهم مع أممهم، يقول ﷻ: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٣]، وتتبين بجلاء أفضل أساليب رفع ظلم الظالمين.



(١) ابن القيم «إغاثة اللهفان» ملخصًا (٢/ ١٣٦، ١٣٧).

المطلب الثاني:
خصائص السنن الإلهية في الظلم

الخصائص: جمع خصيصة، وهي: الصفة التي تميز الشيء وتحدده، واختص بالشيء أي: انفرد به(١)، وخصه بالشيء أفرده به دون غيره، ويقال: اختص فلان بالأمر وتخصله إذا انفرد(٢).

إن للسنن الإلهية في الظلم خصائص تشاركها فيها جميع السنن الإلهية، وهذه الخصائص مما يميز السنن الإلهية بعمومها، والسنن الإلهية في الظلم على وجه الخصوص، ومن هذه الخصائص:

١ - الربانية:

إن أهم ما تختص به السنن الإلهية كونها ربانية المصدر، فمصدرها كلام الله ﷻ، وما صح من سنة نبيه ﷺ، والسنن الإلهية هي من أفعال الله المتعلقة بإرادته ومشيئته وحكمته البالغة، ويتبين ذلك في نسبتها المباشرة لله ﷻ في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فالسنن الإلهية هي أمر الله المقدر.

---

(١) المعجم الوسيط (١/ ٢٣٨)

(٢) لسان العرب (٧/ ٢٤).

٢- الثبات والاطراد:

السنن الإلهية سنن ثابتة لا يعتريها تحول، مطردة لا يعقبها تخلف، ويعتبر الثبات والاطراد من خصائص السنن الإلهية الرئيسية، وهما نتيجة لسمة الربانية، فلما كانت السنن ربانية المصدر فيستحيل تحولها وتبدلها، فأمر الله وفعله لا يتبدل ولا يتخلف، ولذا كان الاعتبار بها ممكن بل ومأمور به، والقياس عليها معتبر، ولو لم تكن كذلك لما صح الاعتبار بها والقياس عليها والاستفادة منها في كل زمان ومكان، يقول الله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٧]، فنفي التبديل والتحويل دلالة على الثبات والاطراد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن وهي كثيرة»(١).

٣- العموم والشمول:

ومما تختص به السنن الإلهية، أنها عامة تشمل: كل زمان ومكان، وكل جنس، وكل دين، وكل جماعة، وكل فرد، فهي سنن لا تحابي أحدًا، ولا تستثني أحدًا، وعمومها وشمولها مبنيان على كونها سنن ربانية متعلقة بحكمة الله وعدله، ولكونها سنن ثابتة مطردة لا تتحول ولا تتخلف، وهذا من كمال عدله ﷻ، ومن كمال حكمته ﷻ، يقول ﷻ: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣].

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٤٩).

فقد رُبطت السنن بعمل الإنسان وكسبه سواءً كان من هذه الأمة أو من غيرها، ولذا تجد أن هذه الأمة مأمورة بالنظر في سير الأمم الأخرى، والاعتبار بها، ولم تستثن لكونها خير الأمم أو خاتمتها، بل سيجري عليها ما جرى على من سبقها من الأمم إذا سلكت طريقهم، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

فذكر السنن التي خلت في الأمم السابقة مع الأمر بالاتعاظ دليل على شمول السنن لكل الأمم، وعدم اختصاص أمة بها دون غيرها، ويقول ﷻ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

فقد حذر الله سبحانه من طول الأمد الذي كان سببًا في قسوة قلوب الأمم السابقة، لأن نتائجه ستلحق كل من طال عليه الأمد من الأمم، يقول النبي ﷺ: «**الله أكبر إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه..**»[1] يقول شيخ الإسلام بن تيمية: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وان كانت مسلمة»[2].

٤- وقوعها في الدنيا:

من خصائص السنن الإلهية أنها تقع في الدنيا في الجماعات والأمم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: ٥٨]، فأي قرية استحقت العذاب،

---

(١) رواه أحمد في المسند، (١١٨٤٣)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) «الاستقامة» ص (٢/ ٢٤٧).

سيقع عليها العذاب قبل يوم القيامة، ومثل ذلك في الاستخلاف والتمكين، فمتى استحقته الأمة حصلت عليه في الدنيا، يقول ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، وهذا الاستخلاف والجزاء لا يكون إلا في الدنيا، لتتحقق الحكمة من الاعتبار والوعيد بمصائر وأخبار الأمم السابقة.

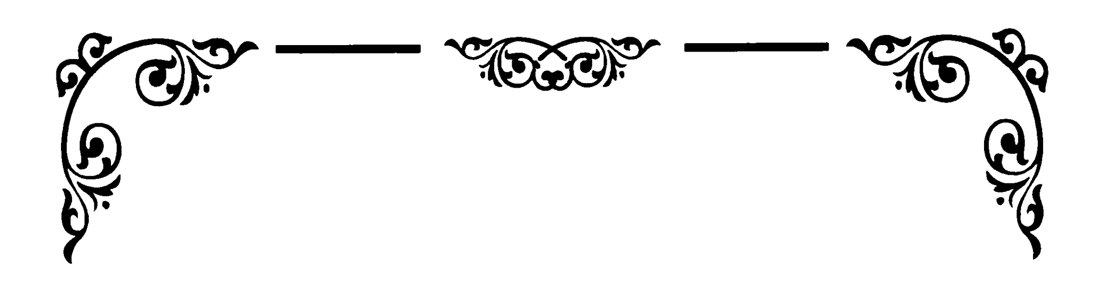
والعقوبة الدنيوية لا تلغي العقوبة الأخروية للأمة المستحقة للعذاب، بل قد يجمع الله للأمم المهلكة العقوبتين في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٦].

أما في الأفراد فقد تكون العقوبة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا، فليس بالضرورة أن يكون الجزاء للفرد في الدنيا، يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨] فقد يؤخر الله عقوبته، أو جزاءه الحسن في الآخرة، حسب ما تقتضيه حكمة الحكيم الخبير.[١]

---

(١) انظر: حسن الحميد «السنن الإلهية في الأمم» ص (٩٩).





المبحث الثاني:
أنواع السنن الإلهية في الظلم

ويشمل:

المطلب الأول: السنن الإلهية في الظالم.

المطلب الثاني: السنن الإلهية الخاصة في المظلوم.

المطلب الثالث: السنن الإلهية العامة في الظالم والمظلوم.





عند النظر للسنن الإلهية في الظلم نجدها تنقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم منها يتعلق بالظالم، وقسم منها يتعلق بالمظلوم، وقسم منها من السنن الإلهية العامة التي لها تأثير كبير في السنن الإلهية في الظلم، ومنهجي في عرضها سيكون بالتعريف بها لغة، ثم بالمراد بها شرعًا، ثم بذكر صيغ ورودها في القرآن، ثم باستنباط فوائدها على وجه الاختصار.



المطلب الأول:
السنن الإلهية في الظالم

أولًا: سنة الإمهال:

● **التعريف**: الإمهال في اللغة: يقول ابن فارس: «الميم والهاء واللام أصلان صحيحان، فالأول التؤدة، وأمهله الله أي: لم يعاجله، ومشى على مهلته، أي على رسله[(١)]، قال الزبيدي: وأمهله أي: أنظره ورفق به ولم يعجل عليه[(٢)].

● **والمراد بها**: سنته سبحانه في تأخير عقوبة الظالم، حسب ما تقتضيه حكمته ﷻ.

● **ورودها في القرآن**: وقد وردت سنة الإمهال بألفاظ متعددة في كلام الله، وهي:

١- **لفظ الإمهال**: وقد وردت سنة الإمهال في القرآن مقرونة بالمدة اليسيرة، في قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١]، وقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، والمهلة هي المدة اليسيرة من الزمن.

٢- **لفظ التأخير**: وقد ورد التأخير على صورتين، تأخير إلى أجل في الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١]،

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٢٨٢).

(٢) «تاج العروس» (٣٠/ ٤٢٩).

وتأخير إلى يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢].

٣- **لفظ الإملاء**: قال ابن منظور: «وأَمْلى اللهُ له أَمْهلَه وطوَّلَ له، والإِمْلاء الإِمْهالُ والتأْخير وإِطالةُ العُمُر»[١] يقول تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٣] قال القرطبي رحمه الله: «أي أطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخر عقوبتهم»[٢]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢] قال ابن جرير رحمه الله: «فأطلتُ لهم في المَهَل، ومددت لهم في الأجَل، ثم أحللتُ بهم عذابي ونقمتي»[٣]، ومثلها قوله سبحانه: ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج: ٤٤]، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وقوله: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٥]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته قال ثم قرأ** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»[٤].

٤- **ومن الصيغ الدالة على معنى الإمهال، النهي عن الاستعجال** كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ

(١) «لسان العرب» (١٥/ ٢٩٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٣٢٩).

(٣) «جامع البيان»، (١٦/ ٤٦٠)

(٤) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة هود، (٤٤٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٦٧٤٦).

يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ [مريم: ٨٤].

● **من فوائد هذه السنة:**

١- إن الإمهال من مكر الله وكيده بالظالمين، فيغتر الظالمون بالإمهال فيزدادون بالظلم ويستكثرون من السيئات حتى يأتيهم الأخذ والإهلاك على غفلة منهم، يقول الله سبحانه: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، قال محمد رشيد رضا: «والكيد كالمكر، هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره، بحيث ينخدع المكيد له بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهي إلى ما يسوؤه من مخبره وغايته، وأكثره احتيال مذموم، ومنه المحمود الذي يقصد به المصلحة»(١)، يقول سبحانه: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، قال محمد رشيد رضا: «إن هذا الإملاء للكافرين ليس عناية من الله بهم؛ وإنما هو جري على سنته في الخلق، وهي أن يكون ما يصيب الإنسان من خير وشر هو ثمرة عمله. ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره، وسببا لاسترساله في فجوره، فيوقعه ذلك في الإثم الذي يترتب عليه العذاب المهين»(٢).

٢- إن الله سبحانه لا يهلك الأمة الظالمة حتى يمهلها، بما يكفي لوصول البلاغ والرسالة إليها، ثم يكون الإهلاك والعقوبة، يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد: ٣٢].

(١) «تفسير المنار» (٩/ ٣٧٨).

(٢) المرجع السابق (٤/ ٢٠٥)

٣- إن الإمهال من رحمة الله بالناس، فكلما زادت مدة الإمهال، زادت فرصة الظالم في الرجوع عن الظلم والتوبة منه.

٤- إن الإمهال ابتلاء للمظلوم، ليعلم صبره على قضاء الله، وثباته على الحق، فيبتلي الله المظلوم بالظالم ليتعبد لربه بأنواع عظيمة من العبادات، كالصبر، والرضا، والدعاء، والتضرع، والتي لم يكن ليركن إليها، ويتقرب لله بها لولا أن ابتلاه الله وامتحنه بتسليط الظالم عليه، يقول سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣] قال ابن جزي: «وعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى، والثبوت على الإيمان، فأعلمهم الله تعالى أن تلك سيرته في عباده»(١).

٥- تتجلى في سنة الإمهال صفات العلم والحكمة لله ﷻ، فما يصيب الناس من ابتلاء هو في الحقيقة نصرٌ لهم، وما يصيبهم من امتحان، هو رفعٌ لدرجاتهم، وهذا مما لا تبلغه أفهامهم وعقولهم، إلا بالتسليم وكمال الرضا بما حكم الله وقضى.

ثانيًا: سنة الاستدراج:

● **التعريف**: الاستدراج في اللغة: يقول الزبيدي: «واستدرجه: رقّاه وأدناه منه على التدريج، واستدراج الله تعالى العبد، بمعنى، أنه كلما جدد خطيئة جدد له نعمة وأنساه الاستغفار»(٢).

---

(١) ابن جزيء الكلبي «التسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ١٣٩٥).

(٢) «تاج العروس» (٥/ ٥٦٠).

● والمراد بها: سنته سبحانه في إمداده للظالم بالنعم، حتى يأخذهم بغتة.

● ورود سنة الاستدراج في القرآن:

● لفظ الاستدراج: ورد لفظ الاستدراج في كلام الله في موضعين: الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٢] يقول محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ «والمراد على هذا أنهم يسترسلون في غيهم وضلالهم من حيث لا يدرون شيئا من عاقبة أمرهم ؛ لجهلهم بسنن الله تعالى في المنازعة بين الحق والباطل والمصارعة بين الضار والنافع، وكون الحق يدمغ الباطل، وما ينفع الناس يصرع ما يضرهم»[(١)]. الثاني: في قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم: ٤٤]، قال ابن قتيبة: «هو أن يذيقهم من بأسه قليلًا قليلًا من حيث لا يعلمون، ولا يباغتهم به ولا يجاهرهم، وقال الأزهري: سنأخذهم قليلًا قليلًا من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغتبطهم به، ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون، قال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة»[(٢)]، يقول الله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

● كل آية تبين إنعام الله على الظالم هي في الحقيقة بيان استدراجه سبحانه للظالمين، ومنها قوله ﷻ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ

(١) «المنار» (٩/ ٣٧٧).

(٢) ابن الجوزي «زاد المسير» (٣/ ٢٩٥).

وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦]، وقوله ﷺ: **إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ:** ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤][(١)]، وهذا الحديث يبين أن الإمداد بالنعم مع البقاء على الظلم هو استدراج.

● **من فوائد هذه السنة:**

١- إن الاستدراج يكون بأكثر من صورة، فمنها تأخير العذاب وهو ما مر في سنة الإمهال، ومنها ما يكون بالإنعام والتمكين للظالم، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦] يقول محمد رشيد رضا: «والمعنى: ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق كم أهلكنا من قبلهم من قوم أعطيناهم من التمكين والاستقلال في الأرض وأسباب التصرف فيها ما لم نعطهم هم مثله، ثم لم تكن تلك المواهب والنعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم»[(٢)]، كما بين لنا الله سبحانه في هذه الآية أن الاستدراج سنة متكررة في الأمم والقرون، فكل إنعام وتمكين لأمة ظالمة هو في الحقيقة استدراج لهم حتى يأتيهم العذاب بغتة.

٢- إن الاستدراج كما أنه يكون في حق الأمم والجماعات، يكون كذلك في حق الأفراد، ومنه قوله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد «إذا رأيت الله يعطي العبد من

(١) رواه أحمد في مسنده، (١٧٣٤٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ ٧٠٠).

(٢) «تفسير المنار» (٧/ ٢٥٦).

الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤][١].

٣- إن استدراج الله للظالم وإمداده بالنعم، هو امتحان للمظلوم وابتلاء له، حتى يتعبد الله بمقاومة الظالم، وكف يده عن الظلم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**» أو «**أمير جائر**»[٢].

٤- إن الأمن من مكر الله سبب في الغفلة عن استدراجه سبحانه للظالمين، يقول الله سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، يقول ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أفأمن يا محمد هؤلاء الذين يكذّبون الله ورسوله، ويجحدون آياته، استدراجَ الله إيّاهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحّة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قصَّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم»[٣] فعلى المؤمن أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، وتنقيتها من الظلم، فليس كل إنعام رضا، وليس كل إمهال تمكين.

ثالثًا: سنة استبانة سبيل الظالمين:

● **التعريف**: قال ابن فارس: «الباء والياء والنون أصلٌ واحد، وهو بُعْدُ الشّيء وانكشافُه، وبانَ الشَّيءُ وأَبَانَ إذا اتّضَحَ وانْكَشَفَ»[٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، (٤٣٤٤).

(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٥٧٨).

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٣٢٨).

● **والمراد بالاستبانة:** كشف وإيضاح حال الظالمين، وبيان سبيلهم، وصفاتهم، وهي سنة مطردة في تعامل الله مع الظالمين.

● **ورود سنة الاستبانة في القرآن:** وردت سنة الاستبانة في كتاب الله بعدة صور وهي:

١- التصريح بلفظ الاستبانة، ومنها قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: ٥٥]، فبين الله أن سبب تفصيله للآيات ولأخبار الأمم السابقة، هو بيان حال وسبيل المجرمين والظالمين.

٢- ذكر صفات الظالمين، وقصص الظالمين والمظلومين في القرآن، وهذا كثير في كتابه سبحانه، فقد قص علينا أخبار الأمم الظالمة، وقص علينا سنته فيها، وأمرنا بالاعتبار بحالها، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾ [هود: ١٢٠]، كما أخبرنا الله بصفات الظالمين من هذه الأمة من المنافقين كما في قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠﴾ [محمد: ٢٩،٣٠]، فيتضح أن بيان حال الظالمين وفضحهم من السنن المطردة في الأمم السابقة وفي هذه الأمة.

● **من فوائد هذه السنة:**

١- **إن الاستبانة تكون بأمرين:**

الأول: تبيين المجرمين من غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ

ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٧٩]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي «لا بُد أن يعقد سببًا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه. يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر»(١).

والثاني: استبانة سبيلهم من سبل غيرهم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥] «أي ولأجل أن يظهر بها طريق المجرمين فيمتازون بها عن جماعة المسلمين»(٢).

٢- إن الله لا يهلك الأمة حتى يرسل لها رسولًا، وحتى يستبين لهم الحق من الباطل، ثم يعذبهم بظلمهم وإعراضهم، قال تعالى: ﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٣١].

٣- إن الله لا يهلك الأمة حتى يبين لها ولغيرها من الأمم سبب هلاكها، ولذا كان بيان ظلم الأمم، وبيان سبب إهلاكهم كثيرًا في كتاب الله، ليحصل الاعتبار والاتعاظ، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦].

٤- إن لتبيين سبيل المجرمين، وفضح ما هم عليه من سوء - حتى يعرفه القاصي والداني- ثمارًا عظيمة، أهمها: ألا يتسرب الشك إلى النفوس في مدى استحقاقهم للعقوبة، ولا يزول الشك حتى يظهر ظلمهم ويعلمه الناس، ويتناقلونه

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٧٣).

(٢) «تفسير المنار» (٧/ ٣٧٦).

فيما بينهم، حتى لا يتهم الأنبياء بالظلم، ويتعاطف مع الظالم، لجهلهم بسبب وقوع العقوبة، ولذا علل النبي ﷺ تركه قتل المنافقين بقوله: «**دعه - المنافق - لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[1]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية تعليقًا على هذا الحديث: «فإن الناس ينظرون إلى ظاهر الأمر فيرون واحدًا من أصحابه قد قتل، فيظن الظان أنه يقتل بعض أصحابه على غرض أو حقد أو نحو ذلك، فينفر الناس عن الدخول في الإسلام، **وإذا كان من شريعته أن يتألف الناس على الإسلام بالأموال العظيمة ليقوم دين الله وتعلو كلمته، فلأن يتألفهم بالعفو أولى وأحرى..**»[2].

٥- أهمية استبانة سبيل المجرمين قبل الدخول معهم في أي معركة، حتى لا يظن المتفرج أن المعركة مع الظالم والمجرم كانت على شيء من متاع الدنيا أو أنها خصومة بشرية، وليست معركة بين الحق والباطل والعدل والظلم، وهذه إحدى الحكم العظيمة للأمر بكف يد الصحابة عن قريش في مكة مع تعذيبهم لهم، حتى يعلم العالم ومن يتلقى الأخبار حقيقة المعركة.

رابعًا: سنة خسران الظالمين:

● **التعريف:** يقول ابن فارس الخاء والسين والراء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على النَّقْص.

● **والمراد بسنة الخسران:** ما قضاه الله على الظالمين من خسارة، وخيبة، ومجانبة للفوز والفلاح.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المنافقون، (٤٦٢٢).

(٢) «الصارم المسلول» ص (٢٤٣).

● **ورودها في الكتاب والسنة:** وردت سنة الخسران في القرآن في عدة صور:

١- لفظ الخسران كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٥]، فبين الله أن الخسران من سننه المطردة الثابتة، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٩]، فبين الله أن سبب خسرانهم هو ظلمهم بتكذيبهم لآيات الله ورسله، فالخسار والبوار مآل كل من كذب المرسلين، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [غافر: ٧٨].

٢- نفي الفلاح عن الظالم الذي كان ظلمه في حق الله ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٢١]، ونفى الله الفلاح عمن كان ظلمه في حق غيره من الناس فقال سبحانه: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣].

٣- لفظ الخيبة، والخيبة الخسارة، قال في القاموس: خاب أي خَسِرَ وكَفَرَ ولم يَنَلْ ما طَلَبَ[١]، فقد قضى الله بالخيبة لكل ظالم فقال سبحانه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١١١].

٤- ومن صور ورود الخسران، ما قصه الله علينا من تعذيبه وإهلاكه للأمم المكذبة، فالهلاك والعذاب من أعظم صور الخسران، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) «القاموس المحيط» (١/ ١٠٥).

أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [غافر: ٧٨].

● **من فوائد هذه السنة:**

١- إن الخسران يكون بالإهلاك الكامل، كما في حال الأمم البائدة، ويكون كذلك بالخسران الجزئي، فقد تخسر الأمة الظالمة، أو الفرد الظالم بعض مكامن قوتها، بجائحة سماوية، أو بأيدي المصلحين من الرسل وأتباعهم، كخسارة الروم للشام بسبب الفتوحات الإسلامية، مع بقاء الأمة الظالمة وعدم هلاكها بالكامل.

٢- إن الخسران يكون في الدنيا والآخرة، ومن خسر في الدنيا بسبب الظلم فهو في الآخرة أشد خسارة بسببه كذلك، يقول الله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ [النمل: ٥] قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم سوء العذاب في الدنيا، وهم الذين قتلوا ببدر من مشركي قريش، وهم يوم القيامة هم الأوضعون تجارة والأوكسوها باشترائهم الضلالة بالهدى»(١).

٣- مهما ارتفع شأن الظالم، وعلا أمره، وظن أنه الفائز، فهذا من استدراج الله له، ومن مكره سبحانه به، وهو في الحقيقة يحمل بذرة الخسران، التي لا تزال تنمو حتى يأذن الله بحصاد هذه النبتة الفاسدة بإهلاك الظالم، يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٢١].

---

(١) «جامع البيان» (١٩/ ٤٢٦).

٤- إن الأمة المسلمة إذا كثر وقوع بعض أفرادها وجماعاتها في شيء من الظلم استحقت الخسران، بسبب ما اقترفته من الظلم، فسنن الله لا تحابي أحدًا، ولا تجامل أحدًا، يقول سبحانه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢].

٥- إن الأصل في الإنسان الخسارة، إلا من استثناه الله في سورة العصر، يقول سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ - ٣]، فكل جنس الإنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع، العلم، والإيمان، والدعوة إليهما، والصبر على الأذى فيهما.

خامسًا: سنة تسليط الظالم على الظالم:

● **التعريف:** قال في القاموس: السين واللام والطاء أصلٌ واحدٌ، وهو القوّة والقهر[١]، والمراد بسنة تسليط الظالم على الظالم، أن الله يقهر الظالم بظالم مثله أو أظلم منه.

● **ورود سنة تسليط الظالم على الظالم في القرآن:** وردت هذه السنة في موضعين من كلام الله:

● **والمراد بها:** سنته سبحانه في إهلاك الظالم بظالم مثله.

١- في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩]، قال ابن الجوزي: أي نسلِّط بعضهم على بعض[٢]، وتسليط الظالم

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٧٢).

(٢) «زاد المسير» (٢/ ٤١٣).

على الظالم سنة من سنن الله في حركة المجتمعات واضحة المعالم عند دراسة التاريخ، يقول الإمام مالك: ينتقم الله من الظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما[١].

٢- ومن ذلك قوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٥] يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلطين إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار»[٢]، ومما يدل على كون المسلطين كفار لفظة «عبادًا لنا» يقول ابن عاشور: والمقصود بعباد الله هنا الآشوريون أهل بابل وهم جنود بختنصر[٣]، فقد سلط الله الكافر على الظالم، لظلمهم وكثرة معاصيهم وتكذيبهم، مع أن بني إسرائيل أقرب إلى الحق من بختنصر لوثنيته، ولكنها سنة الله التي لا تحابي أحدًا.

٣- ومن ذلك قوله سبحانه: « ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم: ١ - ٥]، فبينت الآيات أن المعارك كانت مستمرة بين أمتين ظالمتين، أمة الفرس الوثنية، وأمة أقل منها ظلمًا وهي أمة الروم الكتابية، فتسليط الله هذه الأمم بعضها على بعض - وإن كان بعضها أقل ظلمًا من بعض - هيأ للفتوحات الإسلامية، ومهّد للقضاء على أمة الفرس بالكلية، ومهد لانحسار أمة الروم، وخسرانها لأرض كبيرة من ممتلكاتها، وهي بيت المقدس، والشام المباركة عمومًا.

---

(١) الخرشي «شرح مختصر خليل» (٨/ ٦٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» ص(٤٥٣).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٥/ ٣١).

● ومن فوائد هذه السنة:

١- إن جنود ربك لا يعلمهم إلا هو سبحانه، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وقد يكون الظالم نفسه من جند الله المسخرين بأمر الله لقهر ظالم آخر، وهذا من كمال قدرته سبحانه، وعظيم كيده، يقول النبي ﷺ: «**وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»(١).

٢- إن إشغال الظالم بالظالم، توفير وحفظ لقوة أهل الحق والعدل، حتى يكونوا أقوى من الظالم إذا جاء وقت المواجهة معه، وما كان ضعف ووهن مملكتي الفرس والروم أيام الفتوحات، إلا من آثار تسليط بعضها على بعض، قبل مجيء الفتوحات الإسلامية.

٣- إن من استحق العقوبة بسبب الظلم، عاقبه الله بمن هو أظلم منه، فإن الله يعذب الأمة المؤمنة الظالمة بالأمة الكافرة، إذا استحقت العذاب، بسبب ما وقع منها من تفريط وظلم، فإن الله عذب بني إسرائيل مع ما عندهم من نبوة وكتاب، ببختنصر الوثني.

٤- إن علم الغيب مما اختص الله به، فهو سبحانه ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، ولو علم الظالم أن تسليطه على غيره إنهاك له، في مصلحة أمة أخرى ما أقدم على ذلك، ولكنه تدبير الحكيم الخبير سبحانه، يقول الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

(١) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر، (٢٨٧٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، (٣١٩).

تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

سادسًا: سنة الإهلاك:

● **التعريف:** قال في القاموس: الهاء واللام والكاف: يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوط. منه الهلاك: السُّقوط(١).

● **والمراد بسنة الإهلاك:** سنته سبحانه في إهلاك وتعذيب الأمم والأفراد الظالمين.

● **ورودها في القرآن:** وردت سنة الإهلاك في القرآن بعدة ألفاظ:

١ - **الإهلاك:** يقول ﷻ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥]، فدلت الآية على أن إهلاك القرى سنة متكررة مع كل قرية ظالمة، فيهلك الله القرية الظالمة في حال قيامها بالظلم، واستمرارها عليه، ومن ثبات هذه السنة واطرادها كونها وعيدًا لكل من تهمّ نفسه بالظلم، ووعيد الله لا يتبدل، ولا يتخلف، يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٤٧]، وإهلاك الظالمين مما تطمئن به نفوس الأنبياء، ومما يثبت قلوبهم على الحق، ويصبرهم عليه حتى يأتي وعده سبحانه، يقول ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم: ١٣].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ٦٢).

٢- **العذاب**: وهو في الأصل: الاستمرارُ، ثم سُمِّيَ به كلُّ استمرارِ ألمٍ[(١)]، والعذاب كما أنه يكون في الآخرة فإنه يكون في الدنيا، يقول سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾ [التوبة: ١٠١]، ويقول سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾ [التوبة: ٥٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾ [التوبة: ٧٤]ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)﴾ [التوبة: ٨٥]، فنص الله سبحانه في هذه الآيات على تحقق العذاب في الدنيا.

٣- **الأخذ**: قال سبحانه في الظالمين: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود: ١٠٢]، فبين سبحانه أن سبب إهلاكه للقرى هو ما اقترفه أهلها من الظلم، يقول سبحانه عن أخذه لبعض بني إسرائيل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣)﴾ [النساء: ١٥٣].

٤- **القصم**: قال ابن فارس: القاف والصاد والميم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الكسر. يقال: قصَمْت الشيء قَصْمًا. والقُصَم: الرّجُل يَحطِم ما لَقي. وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء ١١] أراد - والله أعلمُ - إهلاكَه إيّاهم[(٢)].

---

(١) السمين الحلبي «الدر المصون» (١/ ٥٠).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٩٣).

فالقصم تحطيم وكسر الأمم الظالمة، ومما يدل على تكرره واطراده في الأمم الظالمة قوله سبحانه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء: ١١].

٥- **الحيق**: قال ابن فارس: الحاء والياء والقاف كلمةٌ واحدة، وهو نُزولُ الشيء بالشيء[1]، وقال الجوهري: حاقَ به الشيء يَحِيقُ، أي أحاط به، وحاقَ بهم العذاب، أي أحاطَ بهم ونَزَلَ[2].

والحيق من سنن الله المتكررة في الأمم السابقة، كما يخبر الله نبيه في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠]، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود: ٨]ومما يدل على أن الحيق بالأمم الظالمة من سننه سبحانه المتكررة في إهلاك الظالمين، قوله سبحانه: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

٦- **التدمير**: قال ابن فارس: والدمار الهلاك[3].

ووردت سنة الإهلاك بلفظ التدمير في آيات كثيرة من كلام الله، يقول سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦]، وقد أمرنا الله سبحانه بالنظر في ديار المدمرين المعذبين، حتى تكون

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٢٥).

(٢) «الصحاح» (١/ ١٥٩).

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣٠٠).

لنا عبرة وعظة فنتجنب ما كانوا يعملون، يقول سبحانه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥١]، ولا يكون الأمر بالنظر والاعتبار، إلا فيما يتكرر مع تكرر سببه، وإلا لم ينتفع من الاعتبار، يقول سبحانه: ﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠﴾ [محمد: ١٠].

٧- **الرجز:** قال ابن فارس «الرِّجز العذاب»[1].

يقول سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٥٩﴾ [البقرة: ٥٩]، وقد يكون العذاب على بعض الأمة دون بعضها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤﴾ [الأعراف: ١٣٤]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٣٤﴾ [العنكبوت: ٣٤].

● **ومن فوائد هذه السنة:**

١- إن الله لا يعاجل الأمة بالإهلاك حتى يبعث إليها رسولًا، يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص: ٥٩].

٢- إن العذاب يكون سببًا في توبة بعض الأمم، والأفراد، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾ [الأنعام: ٤٢]، فجعل الله سبحانه العذاب سببًا للتضرع والتوبة، يقول سبحانه: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤٨٩).

ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٨]

٣- إن وقوع الإهلاك يكون بغتة وفجأة، ولكن بعد مدة من الإملاء والإمهال والاستدراج، يقول سبحانه: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٤].

٤- إن الأمة التي تطلب من أنبيائها معجزات للتعجيز والتعنت، ثم تجاب إلى طلبها ولا تؤمن، فإن الله يعاجلها بالعذاب، يقول سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٩][1].

٥- إن للإهلاك صور متنوعة، فمنها ما يكون رجفة كقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٨]، ومنها ما يكون بالصيحة، كقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود: ٦٧]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤١]، ومن صور الإهلاك الإغراق في البحر، يقول سبحانه: ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القصص: ٤٠]، ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وذكر الله

(١) شريف الخطيب «السنن الإلهية في الحياة الإنسانية» (٢/ ٢٧٨).

جملة من صور العذاب، وبين أن أعظم مسبباتها هو الظلم، وذلك في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٦- إن من أعظم أسباب الإهلاك هو الظلم بكل صوره، وأعظمها الشرك بالله، يقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

٧- إن أعظم ما ينجي من العذاب، النهي عن الظلم ودفعه ورفعه، فإن أهلك الله أمة من الأمم، فإنه سينجى من برأت ذمته بالنهي عن الظلم، يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥].

٨- إن الإهلاك إذا وقع لا يرفع، حتى لو آمنت الأمة المهلكة بعد وقوعه يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

سابعًا: سنة الاستبدال:

ومن سنن الله الجارية في الظلم، استبداله سبحانه للظالمين من الأمم والأفراد.

● **التعريف:** الاستبدال: التبديل، والسين والتاء للمبالغة[(١)]، قال الراغب الأصفهاني: (الاستبدال جعل الشيء مكان آخر وهو أعم من العوض، فإنّ العوض هو أنْ يصير لك الثاني بإعطاء الأول، والتبديل قد يُقال: للتغيير مطلقًا وإنْ لم يأتِ ببدله)[(٢)].

● **والمراد بسنة الاستبدال:** سنته سبحانه في إهلاك الأمم الظالمة المفرّطة في الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، والإتيان بأمة أخرى، تكون خيرًا منها.

● **ورودها في القرآن:** جاءت سنة الاستبدال في القرآن بعدة ألفاظ، وهي:

١- **الاستبدال:** يقول سبحانه فيمن ظلموا أنفسهم بالتخلف عن الجهاد في سبيله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٩]، ويقول سبحانه فيمن ظلم نفسه بالشح والبخل وعدم الإنفاق في سبيل الله: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨]، ويخبرنا سبحانه بقدرته على استبدالنا، والإتيان بأمثالنا في قوله: ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦١] فمن خلقنا أول مرة هو أقدر على استبدالنا بغيرنا، إذا استحقينا ذلك بظلمنا، يقول سبحانه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: ٢٨].

٢- **الإتيان:** يقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤]، ويقول سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) «التحرير والتنوير» (١١٧/٢٦).

(٢) ، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص (٨٦٣).

﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣]، وغيرها من الآيات الدالة على قدرة الله سبحانه على الإتيان بأمم تطيعه وتمتثل لأمره، تكون بديلًا للأمة الظالمة.

٣- **الاستخلاف**: وهو بمعنى البدل[1]: يقول سبحانه ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [الأنعام: ١٣٣] يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي خلقًا آخر أمثل منكم وأطوع[2]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ٥٧﴾ [هود: ٥٧]، فهذه الآيات بينت أن الاستخلاف هنا بمعنى الاستبدال، وقد جعل الله الاستبدال والاستخلاف وعيدًا يتوعد به الأمم قال سبحانه: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

● **ومن فوائد هذه السنة:**

١ - إن الله غني عن خلقه، ومن كمال غناه استبداله لهم إذا ضيعوا أمره، فعن جبير بن نفير قال: (لما فتحت قبرص فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض؛ فرأيت أبا الدرداء جالسا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء! ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟! فقال: ويحك يا جبير!! ما أهون الخلق على الله ﷻ إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى)[3].

٢ - إن الاستبدال قد يكون استبدالا للأمة كاملة، كإهلاك الله للعرب البائدة وقوم نوح وقوم لوط، أو يكون استبدالا لجيل من أجيال الأمة بجيل آخر من نفس

(١) «الدر المصون» (٥/ ١٥٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٨٨).

(٣) الطبري، «تاريخ الأمم والملوك» (٢/ ٦٠٢).

الأمة، كاستبدال جيل بني إسرائيل المعاصر لموسى، بجيل يوشع بن نون، الذي فتح الله عليه الأرض المقدسة بعد التيه.

٣- إن الاستبدال يكون بعدة صور:

١- استبدال يكون بمعنى الإهلاك للأمة المستبدلة وإنشاء أمة بديلة، وبهذه الصورة يكون من ألفاظ سنة الإهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٩]، فإن الله يهلك الأمة المستبدلة أو الجيل المستبدل بأمة أخرى وجيل آخر.

٢- استبدال حضاري، فلا يشترط له إهلاك الأمة المستبدلة، وإنشاء أمة أخرى مكانها، بل يبقيها ويجعل القيادة والتمكين بيد الأمة البديلة، كما استبدل الله أمة بني إسرائيل التي فضلها الله على العالمين في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧]، بأمة محمد ﷺ، فجعل فيها ختم الرسالة والخيرية والشهادة على الأمم، استمرار وجودهم، وبقائهم على انحرافهم إلى قيام الساعة.

المطلب الثاني:
السنن الإلهية الخاصة في المظلوم

أولًا: سنة الابتلاء:

● **التعريف:** قال الزبيدي: وأَصْلُ الابْتِلاءِ الاخْتِبار[1]، قال ابن الأثير: الابتلاء الاختبار والامتحان[2].

● **والمراد بسنة الابتلاء** هو سنته سبحانه في امتحانه واختباره لعباده بالتكليف وبالسراء والضراء، فإن العلاقة التي تربط الإنسان بالحياة الدنيا هي علاقة الابتلاء والامتحان.[3]

● **ورودها في القرآن:** وردت سنة الابتلاء في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله:

١- **الابتلاء:** يقول سبحانه عن ابتلائه لأهل السبت من بني إسرائيل: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣]، وسمى الله سبحانه عظيم نعمه وعظيم عطاياه ابتلاءً في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، ويخبرنا الله سبحانه أن الابتلاء والامتحان من حكمته سبحانه في خلق الموت والحياة، فيقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ

---

(١) «تاج العروس» (٣٧/ ٢٠٦).

(٢) ابن الأثير «النهاية» (١/ ١٥٥).

(٣) ماجد عرسان «فلسفة التربية الإسلامية»، (١٧٤)

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢]، ويبين ربنا ﷻ أن الابتلاء يكون في السراء والضراء، فيقول سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

٢- الفتنة: وهي من الألفاظ التي دلت على الابتلاء، قال ابن منظور: جِماعُ معنى الفِتْنة الابتلاء والامْتِحانُ والاختبار[(١)]، وقال ابن فارس: الفاء والتاء والنون أصلٌ صحيح يدلُّ على ابتلاء واختبار[(٢)].

يقول سبحانه في الابتلاء العام: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢٥﴾ [الأنفال: ٢٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١١﴾ : [الحج: ١١]، ويبين الله بعض أنواع الابتلاء في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [الأنفال: ٢٨].

● من فوائد هذه السنة:

١ - إن للابتلاء صورًا، وهي:

١ - الابتلاء بالتكليف والأمر والنهي والعبودية لله، يقول سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٦].

---

(١) «لسان العرب» (١٣/ ٣١٧).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٤٧٢).

٢- الابتلاء بالسراء وتوالي النعم على العبد، يقول سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٦-١٧]، ويقول سبحانه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨].

٣- الابتلاء بالضراء، والعذاب الدنيوي، يقول سبحانه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

٢- الابتلاء سنة ماضية جارية على الأفراد والجماعات قديمًا وحديثًا، يقول سبحانه: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢]، ويقول ﷻ: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴿١٧﴾﴾ [القلم: ١٧]، وعن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(١)، ومعنى كون الابتلاء سنة ماضية أي أن الابتلاء مستمر باستمرار الحياة، فلا يزال الانسان مبتلى مادام في دار الابتلاء، وهي الحياة الدنيا(٢).

٣- إن للابتلاء ثمارًا وحكمًا عديدة منها:

١- الابتلاء تمحيص للمجتمع المسلم وتنقية له من الدخن، يقول سبحانه:

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، (٣٤١٦).

(٢) ماجد عرسان «فلسفة التربية الإسلامية (١٨٩)

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤١]، ويقول ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

٢- الابتلاء تمييز بين المؤمنين وبين غيرهم من الكفار والمنافقين، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

٣- الابتلاء تعبدٌ لله بعبادة الصبر على أقدار الله، والثبات على الحق، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

٤- الابتلاء سبب في التوبة والعودة إلى الله سبحانه، يقول الله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ثانيًا: سنة هدايته لمن بذل جهده وبذل الوسع:

● **التعريف:** قال ابن فارس: «الجيم والهاء والدال أصله المشقة»[(١)].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٤٨٦).

● **والمراد بسنة المجاهدة:** أن الله جعل نصره لمن بذل جهده ووسعه في رفع الظلم من سننه المطردة الثابتة يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

● **ورودها في القرآن:** وردت هذه السنة في القرآن بعدة ألفاظ:

١ - **لفظ الأمر بالجهاد:** كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فإن التوكيد باللام والنون يدل على ثباتها واطرادها، وقوله سبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢].

٢ - **الأمر ببذل الوسع:** يقول سبحانه ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٣- **الأمر ببذل الاستطاعة:** ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال: ٦٠].

● **ومن فوائد هذه السنة:**

١ - أن مجاهدة الظالمين سنة مطردة، يقول سبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ومنه قوله سبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [التوبة: ١٦].

٢- إن الله ربط الفلاح ببذل الجهد يقول سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥].

٣- إن الله سبحانه جعل الفوز صفة لمن بذلوا جهدهم بفعل أسباب رفع الظلم عنهم، يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ٢٠].

٤- إن الله نفى الظلم عمن بذل وسعه في الامتثال للتكاليف الشرعية، يقول سبحانه: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: ٦٢].

٥- إن سنة الجهاد وبذل الوسع ليست مقتصرة على القتال بل على كل ما دخل في مسمى بذل الجهد، يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فهي مما نزل قبل فرض الجهاد بالقتال، قال القرطبي: «قال السدي وغيره: إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال، قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته»(١)، وقد جعل الله الإنفاق في سبيل الله جهادًا، يقي من الظلم الشح، ويثمر الفلاح يقول سبحانه: ، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: ١٦].

٦- إن منطوق اقتصار الأمر بما يستطيعه الإنسان ويطيقه، وعدم تكليفه فيما هو خارج دائرة ما يستطيع ويطيق، رخصة من الله ورحمة، ومفهومه عزيمة

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٣٦٤).

وتكليف بكل ما يطيقه الإنسان ويستطيعه من فعل ما أمر الله به ورسوله، فهو رخصة لذلك العصر الذي يبذل أحدهم كل وسعه في الامتثال لأمر الله ونهيه ويخشى أن يكلف بما لا يطيق، وعزيمة في العصور المتأخرة التي يقل فيها من يبذل وسعه وطاقته في الامتثال لأمر الله ورسوله ﷺ، والله المستعان.

ثالثًا: سنة النصر:

● **التعريف:** النصر قال ابن فارس: «نصر: النون والصاد والراء أصلٌ صحيح، يدلُّ على إتيان خَيرٍ وإيتائه. ونَصَر اللهُ المسلمين: آتاهمُ الظَّفَرَ على عدوِّهم، ينصرهم نَصْرًا. وانتصر: انتقم، وهو منه»[1].

● **والمراد بها:** أن من سننه سبحانه امضاء قدره بنصر أهل الإيمان يقول سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

● **ورودها في القرآن:**

١- النصر في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]،: فهذا الوعد سنة من سنن اللّه الكونية، سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونة بتقدير اللّه، يحققها حين يشاء، ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ

---

(١) معجم مقاييس اللغة، (٥/ ٤٣٥).

لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤]، فبين الله في قوله «ولا مبدل لكلمات الله» أن سنة النصر من كلمات الله الثابتة وأحكامه الماضية يقول محمد رشيد رضا: «أي في وعده ووعيده التي منها وعده للرسل بالنصر، وتوعده لأعدائهم بالغلب والخذلان، ولا في غير ذلك من الشرائع والسنن التي اقتضتها الحكمة»[1]، بل إن الله جعل نصره لعباده المؤمنين من حقوقهم عليه تفضلًا منه وكرمًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧] قال ابن كثير: «هو حقّ أوجبه على نفسه الكريمة، تكرمًا وتفضلًا»[2]، ووعد الله لا يتخلف، وإن استيأس منتظروه، فقد يؤخره الله ابتلاءً وتمحيصًا لأهل الإيمان، يقول سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠] تلك سنة اللّه في دعوة الأنبياء وأتباعهم من بعدهم، لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس.

٢- **لفظ الاستخلاف:** قال الراغب: والخِلافةُ: النّيابة عن الغير إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المستخلف. وعلى هذا الوجه الأخير استخلف اللّه أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾»[3]، ولا تكون هذه النيابة إلا بعد تمام النصر، فهو ثمرة من ثمرات النصر ونتيجة من نتائجه.

---

(١) «تفسير المنار» (٧/ ٣١٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٣٢١).

(٣) «المفردات» (١/ ٢٩٤).

يقول سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] قال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية: «هي إخبار عن عادته سبحانه في خلقه وحكمته التي لا تبديل لها أن من آمن وعمل صالحا مكن له في الأرض واستخلفه فيها ولم يهلكه ويقطع دابره كما أهلك من كذب رسله وخالفهم وقطع دابره»[(١)].

٣- **التمكين:** قال الجرجاني: «التمكين هو مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تمكين؛ لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف فإذا وصل واتصل فقد حصل التمكين»[(٢)].

يقول سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾ [النور: ٥٥].

٤- الغلبة، قال ابن فارس: «الغين واللام والباء أصلٌ صحيح؛ يدلُّ على قوّةٍ وقَهرٍ وشدَّة»[(٣)]، يقول سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾ [المجادلة: ٢١]، قال ابن جرير رحمه الله: «قضى الله وخطّ في أمّ الكتاب، لأغلبنَّ أنا ورسلي مَن حادّني وشاقَّني»[(٤)]، وقد جعل الله الغلبة وصفا لازما لعباده المؤمنين، فهم الغالبون المنصورون، فكما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

(١) «جلاء الأفهام» ص (٢٨٧).

(٢) التعريفات، ص٩٢.

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٣٨٨).

(٤) «جامع البيان» (٢٣/ ٢٥٧).

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٣] وقوله ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص: ٣٥].

٥- ومن ورود هذه السنة في كلام الله، الكلام على ضدها وهو كل ما ورد من إهلاك واستبدال وخسارة الظالمين والكافرين، هو في الوقت نفسه نصرة واستخلاف وتمكين للمظلومين من الأنبياء وأتباعهم.

● **ومن فوائد هذه السنة:**

١- إن سنة النصر لأهل الإيمان سنة مطردة ثابتة لا تتبدل ولا تتخلف وإن تأخرت، ابتلاءً وتمحيصًا، وحتى يستوفي المنصورون شروط النصر ويجتنبوا موانعه، ومما دل على اطرادها الألفاظ التي وصفها الله به في كتابه مثل: (الكتابة، والوعد، والحق، ونفي التبديل، وإطلاق وصف الغلبة على أهل الإيمان، واستخلاف المؤمنين من الأمم السابقة) كل هذه الأوصاف تدل على ثبات هذه السنة، واطرادها وعدم تخلفها.

٢- إن من أسباب تحقق سنة النصر القيام بشروطها، وأهمها نصرة الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والقيام بأسباب النصر الحسية والمعنوية، يقول سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج: ٤٠] وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧].

٣- إن للنصر صورًا متعددة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ منها:

١- النصر العسكري المباشر على العدو، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

٢- النصر بالرعب، يقول النبي ﷺ: «**أُعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر.. وفي رواية: نصرت بالرعب على العدو..**»[١].

٣- إهلاك الله الظالمين، وإنجاء المظلومين بدون جهد منهم، يقول سبحانه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٠-١٤].

٤- النصر بالثبات على الحق، وعدم التخلي عنه، وقد أثنى الله سبحانه على الثابتين على الحق وإن لم ينتصروا عسكريًا، فمجرد بقاء الحق تتناقله الأجيال هو نصر كبير وفوز عظيم يقول الله سبحانه عن أهل الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]، ومع ما أصابهم من القتل والحرق يقول سبحانه عن عاقبتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١١]، فسماه فوزًا كبيرًا، مع أنهم لم ينتصروا في ميدان المعركة، ولكنهم انتصروا في الثبات على الحق والموت في سبيله.

٥- النصر بالحجة والبرهان، يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢]، قال شيخ الإسلام بن تيمية: «فأمره الله سبحانه وتعالى أن يجاهد الكفار بالقرآن جهادا كبيرا وهذه السورة مكية نزلت

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)، (٤٢٧)، ومسلم، كتاب المساجد، باب منه، (١١٩٩).

بمكة قبل أن يهاجر النبي وقبل أن يؤمر بالقتال ولم يؤذن له وإنما كان هذا الجهاد بالعلم والقلب والبيان والدعوة لا بالقتال»(١)، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار، بالحُجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلكَ جهادُ المنافقِينَ، إنما هو بتبليغ الحُجَّة، وإلا فَهُمْ تحت قهر أهلِ الإسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهادُ المنافقين أصعبُ مِن جهاد الكفار، وهو جهادُ خواصِّ الأمة، وورثةِ الرُّسل، والقائمون به أفرادٌ في العالَم، والمشارِكُون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هُم الأقلين عددًا، فهم الأعظمون عند الله قدرًا»(٢).

٦- النصر بالحفظ والحماية والعناية الربانية، يقول سبحانه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٥]، ويقول سبحانه: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧]، فحفظه سبحانه لأوليائه من الأنبياء وأتباعهم من كيد الظالمين من أعظم النصر.



(١) «منهاج السنة» (٨/ ٦٣).

(٢) «زاد المعاد» (٥/ ٣).

المطلب الثالث:
السنن الإلهية العامة في الظالم والمظلوم

نتناول في هذا المطلب السنن العامة المؤثرة في الظلم بعمومه، سواء كان بالنظر لحال الظالم أو النظر لحال المظلوم، ولو تأملنا سنن الله في الأفراد والمجتمعات لوجدنا أن أغلبها يدخل في هذا الباب، وسأقتصر على السنن العامة ذات التأثير المباشر في الظلم، وهما سنتي التدافع والتغيير، لما لهما من عظيم الأثر، في السنن عمومًا، وفي السنن الإلهية الخاصة في الظلم على وجه الخصوص:

أولًا: سنة التدافع بين الحق والباطل:

● **التعريف:** قال ابن منظور: «الدفع الإزالة بقوة. يقال دفعه يدفعه دفعًا ودفاعًا، ودافع عنه بمعنى دفع. ونقول: دفع الله عنك المكروه دفعًا ودفاعًا، ودافع الله عنك السوء دفاعًا. وتدافع القوم: دفع بعضهم بعضًا. والمدافعة: المزاحمة. والاندفاع المضي في الأمر»[١].

● **والمراد بسنة التدافع بين الحق والباطل:** هو ما قدره الله من مواجهة وصراع بين الحق والباطل، وأن هذه المواجهة وهذا الصراع سنة إلهية ماضية، لا تتبدل ولا تتخلف.

● الورود في القرآن:

١- لفظ المدافعة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ

(١) «لسان العرب» (٩/ ٤٤١).

جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١] يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه»[(١)]، ويقول محمد رشيد رضا: «دفع الله الناس بعضهم ببعض من السنن العامة»[(٢)] ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]» قال أبو السعود في تفسيره: «بتسليطِ المؤمنين على الكافرين في كلِّ عصرٍ وزمانٍ»[(٣)].

٢- **لفظ القذف**: يقول سبحانه ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨] قال الزمخشري: «ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق بكلماته أي بوحيه أو بقضائه»[(٤)].

٣- **المحو**: يقول سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى: ٢٤] قال الرازي في تفسيره «أي ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق»[(٥)].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ص (١٠٨).

(٢) «تفسير المنار» (٢/ ٢٩٤).

(٣) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٤/ ٤٦٩).

(٤) «الكشاف» (٤/ ٢٢٢).

(٥) «مفاتيح الغيب» (٢٧/ ١٦٨).

٤- كل ما ورد من ذكر القتال والجدال والصراع بين الحق والباطل، وكل ما ذكر من نصره سبحانه للمظلومين، وعقوبته للظالمين، هو من باب التدافع بين الحق والباطل.

● **ومن فوائد هذه السنة:**

١- إن الصراع بين البشرية سنة إلهية ثابتة منذ أن خلق الله البشر، يقول ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة، لم تزل واقعة في الخليقة منذ أن بَرَأَها الله، وأصل هذا إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب كل منها أهل عصبيتها، فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان، إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب، وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل، وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة أو منافسة أو عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده»(١).

٢- إنه لا بد للحق من قوة تدفعه وتقذف به، ليمحو الباطل ويزهقه، وهذه القوة إما قوة ربانية مباشرة، كإهلاكه سبحانه لأعداء الأنبياء بأنواع المهلكات، أو قوة من يسخره الله من أهل الإيمان والحق، يدافعون عنه، ويدفعون به في مقاومة الباطل ومصارعته.

٣- إن الحكمة من استمرار الصراع والمدافعة بين أهل الحق والباطل تتبين في قوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥١]،

(١) «المقدمة» (٢٧٠).

فانتفاء المدافعة سبب في الفساد في الأرض، وقد بين الله نوع هذا الفساد في آية الحج في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠]، فبين الله أن الفساد كل الفساد في ترك ذكر الله، وذلك بهدم أماكن عبادته وإقامة ذكره ﷻ، ولذا كان شعار المجاهد في سبيل الله (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﷻ)[(١)].

٤- إن التدافع كما أنه يكون بين أهل الحق وأهل الباطل، يكون كذلك بين أهل الباطل أنفسهم، يقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩]، قال القرطبي: نسلط بعض الظالمين على بعض، فنأخذ من الظالم بالظالم، كما جاء: من أعان ظالمًا سلطه الله عليه»[(٢)].

٥- إن وجود الباطل وأهله امتحان وابتلاء لأهل الحق، ليتقربوا إلى ربهم بقرب الجهاد، والدعوة، والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثبات على الحق، والصبر على الأذى، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢].

ثانيًا: سنة التغيير:

● **التعريف:** التغيير هو التبديل[(٣)]، وهو انتقال الشيء من حالة إلى أخرى[(٤)]،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالما جالسا، (١٢٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، (٥٠٢٨).

(٢) «جامع البيان» (٨/ ٣٥).

(٣) «تفسير البيضاوي» (١/ ٤٦٠).

(٤) «المحرر الوجيز» (٢/ ١١٤).

والتغيير يقال على وجهين، أحدهما: تغيير صورة الشيء دون ذاته، يقال: غيرت داري إذا بنيتها بناءً غير الذي كان، والثاني: لتبديله بغيره، نحو غيرت دابتي وغلامي إذا أبدلتهما بغيرهما[١].

● **والمراد بسنة التغيير**: هي سنته سبحانه في تبدل أحوال الناس وأمورهم إلى الأسوأ أو الأحسن بحسب ما يصدر منهم وفق علمه سبحانه وإرادته وحكمته[٢].

● **ورودها في القرآن**: وردت سنة التغيير في كلام الله بعدة صور وألفاظ، وهي:

١ - لفظ التغيير في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٥٣﴾ [الأنفال: ٥٣]، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأخذنا هؤلاء الذين كفروا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم، وفعلنا ذلك بهم، بأنهم غيَّروا ما أنعم الله عليهم به من ابتعاثه رسولَه منهم وبين أظهرهم، بإخراجهم إياه من بينهم، وتكذيبهم له، وحربهم إياه، فغيرنا نعمتنا عليهم بإهلاكنا إياهم، كفعلنا ذلك في الماضين قبلهم ممن طغى علينا وعصى أمرنا»[٣]، وقوله عَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [الرعد: ١١]، قال ابن عطية: «معناه حتى يقع تغيير إما منهم وإما من الناظر إليهم أو ممن هو منهم بسبب، كما غير الله تعالى بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة

(١) «المفردات» (١/ ٣٦٨).

(٢) أيمن المغربي «السنن الإلهية في تغيير المجتمعات في ضوء القرآن» ص (٤٠) رسالة ماجستير في جامعة أم القرى.

(٣) «جامع البيان» (١٤/ ١٩).

ما بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة»(١).

٢- لفظ التبديل، يقول سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، قال ابن جرير: وليغيرنّ حالهم عما هي عليه من الخوف إلى الأمن، والعرب تقول: قد بدّل فلان إذا غيرت حاله، ولم يأت مكان غيره، وكذلك كلّ مغير عن حاله، فهو عندهم مبدل»(٢).

٣- وورد معنى التغيير في كل ما ذكره الله من أخبار الأمم السابقة، وما ذكره من تغير أحوالها، من عز إلى ذل، ومن نصر إلى هزيمة، ومن استعباد وإذلال إلى تمكين واستخلاف، فكل ما قصه الله علينا من هذه الأخبار هو مثال تطبيقي عملي لهذه السنة الكبرى من سنن الله في الخلق.

٤- وورد معنى التغيير فيما بيَّنه الله لنا من أسمائه وصفاته وأفعاله، يقول سبحانه عن نفسه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣]، يقول سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

● **ومن فوائد هذه السنة:**

١- إن سنة التغيير من السنن الإلهية الكبرى التي لا تتخلف ولا تتبدل، ومما يدل

---

(١) «المحرر الوجيز» (٤/ ٦٩).

(٢) «جامع البيان» (١٩/ ٢٠٨).

على عمومها اقترانها بلفظ (قوم) في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ [الرعد: ١١]، ولفظة (قوم) نكرة تشمل كل قوم مهما كانت ديانتهم أو عددهم.

٢- إن التغيير الرباني لحال الأمم مرتبط ارتباطا وثيقا بما قامت به الأمة من تغيير في حالها، وما مارسته من أسباب التغيير، فمن سنن الله في التغيير ربط النتائج بمسبباتها، سواء كانت هذه الأسباب حسية مادية، أو أسبابًا معنوية وشرعية.

٣- إن التغيير البشري المسبب للتغيير الرباني، قد يكون من الأمة كلها، كما دل عليه ظاهر الآية، وقد يكون من بعض الأمة، يقول ابن عطية: «حتى يقع تغيير إما منهم وإما من الناظر إليهم أو ممن هو منهم بسبب، كما غير الله تعالى بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم»(١)، ويدل على عدم اشتراط التغيير من كل الأمة، ما رواه البخاري عن زينب بنت جحش، قالت قلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»(٢).

٤- إن التغيير قد يكون من حالة حسنة إلى حالة سيئة والعكس، وقد يكون من حالة حسنة إلى حالة أحسن منها، ومن حالة سيئة إلى حالة أسوأ منها، ويدل على ذلك عموم لفظ التغيير الوارد في الآية.

٥- إن التغيير لا يخص نعمة دون غيرها بل هو عام في جميع النعم، وليس بالضرورة أن يكون التغيير شاملًا لكل النعم، بل قد يغير الله نعمة ويبقي نعمًا أخرى.

---

(١) «المحرر الوجيز» (٤/ ٦٩).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، (٣١٦٨)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، (٧٤١٦).

٦- إن سنة الله في التغيير هي التدرج، والتدرج من سننه الإلهية العامة في الكون والأنفس والمجتمعات، يقول سبحانه في تدرجه في الخلق: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٤]، ويحذر الله الأمم من التغير المتدرج في اتباع الشيطان فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨]، فكما أن الإصلاح ورفع الظلم يكون متدرجًا، فكذلك يكون وقوع الفساد والظلم وانتشاره بين بالناس.





المبحث الثالث:

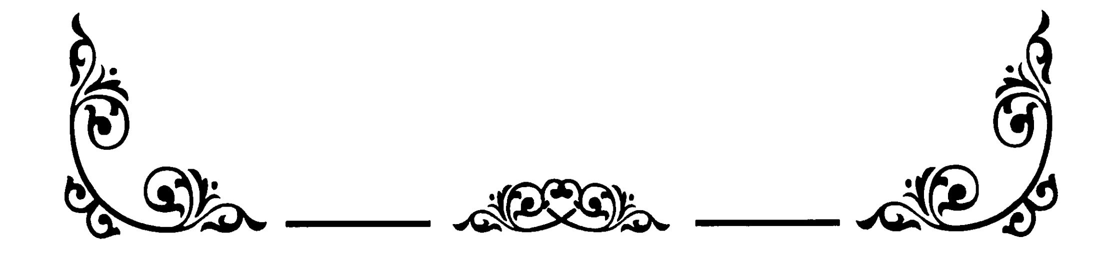
تطبيقات السنن الإلهية في الظلم

ويشمل:

المطلب الأول: تطبيقات السنن الإلهية في الظلم في الأمم السابقة.

المطلب الثاني: تطبيقات السنن الإلهية في الظلم في الأمة الإسلامية.

المطلب الثالث: تطبيقات السنن الإلهية في الظلم في العصر الحديث.



لا تتضح السنن الإلهية إلا بمعرفة تطبيقاتها وأمثلتها في التاريخ، فقراءة التاريخ مع استحضار سنن الله في الأمم والمجتمعات، يجعل قارئه على هداية من ربه، فيتحقق له الاعتبار والانتفاع بما يقرأ، فإن الاعتبار هو الثمرة المرجوة من النظر في تاريخ الأمم، والسير في الأرض، يقول سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقد قسمت هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب، تتقاسم التاريخ البشري، حتى يتبين لنا اطراد هذه السنن، وعدم تخلفها في كل زمن وفي كل أمة، فكان المطلب الأول يتناول تطبيقاتها في الأمم السابقة قبل الإسلام، والمطلب الثاني يتناول تطبيقاتها في السيرة النبوية، والمطلب الأخير يتناول تطبيقاتها في العصر الحديث.



المطلب الأول:
تطبيقات السنن الإلهية في الظلم في الأمم السابقة

يتبين لكل قارئ لكلام الله المساحة الكبيرة المخصصة للقصص القرآني، وأخبار الأمم السابقة، والتي تعتبر من أهم مصادر السنن الإلهية، فإن الله لم يقصها على أمة محمد ﷺ إلا للاعتبار، والاعتبار لا يتحقق إلا باطراد السنن والأسباب والنتائج، وإلا لم يحصل الاعتبار المنشود، يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

وفي هذا المطلب سأتناول ثلاثة أمثلة من القصص القرآني، وسأبين من خلالها السنن الإلهية المؤثرة فيها:

التطبيق الأول: قصة جالوت ﷺ.

- **القصة:**

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦- ٢٥٢].

يتبين لنا من الآيات السابقة التفصيل القرآني لقصة طالوت عليه السلام، وهو ملك صالح من ملوك بني إسرائيل، رفع الله به الظلم، وأهلك به الظالمين، فإن بني إسرائيل اشتكوا إلى نبيهم الظلم والإخراج من الديار والأهل، وتسليط الظالمين عليهم، وسألوه أن يُنَصِّب عليهم ملكًا يقاتلون معه، ليرفعوا عن أنفسهم الظلم، فأخبرهم أن الله قد مَلَّك عليهم طالوت، وبين لهم سبب اختياره، وهو ما تميز به من القوة العلمية والقوة البدنية، وبين الله لنا حكمة طالوت وعلمه، ويتبين ذلك بامتحانه لبني إسرائيل، حينما حرم عليهم الشرب من النهر إلا من اغترف شربة واحدة، وبين لنا سبحانه صدق التجاء الفئة التي اجتازت امتحان طالوت، وذلك بذكر دعائهم حينما التقوا بجالوت وجنوده، وبين لنا سبحانه أن داود عليه السلام كان من

جند طالوت، وهو من جعل الله النصر على يده، وهذا يدل على نوعية الفئة المنتخبة لرفع الظلم، فهم خيار الأمم ومصلحوها، ثم ختم الله القصة بذكر سنة المدافعة والحكمة منها.

هكذا عرض الله سبحانه هذا الحدث المهم في تاريخ بني إسرائيل، حدث انتقام الفئة المظلومة من الفئة الظالمة، وفق سنن الله في الأفراد والمجتمعات(١).

● **السنن المؤثرة:**

السنن الإلهية تظهر بوضوح في القصص القرآني، فإن من حكم إيرادها الاعتبار والتأسي والاقتداء، يقول سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهذه القصة القرآنية مليئة بالسنن الإلهية في الأفراد والمجتمعات، ومن هذه السنن:

١- سنة اتخاذ الأسباب، فقد أيقن بنو إسرائيل أن الظلم لن يزول، ولن يرفع إلا بفعل أسباب زواله ورفعه، ولذلك قاموا بخطوات عملية مهمة في رفع الظلم، ومنها:

١- الاحساس بالظلم والقهر، فمجرد شعور الأمة بالظلم، وعدم الرضا به واستمراء العيش تحت ظله، يدل على أن الأمة لم تمسخ فطرتها، ولم يستولِ الظالم على نفسيتها.

٢- استشارة نبيهم في وسائل رفع الظلم، وكانت نتيجة هذه الاستشارة تنصيب طالوت ملكًا عليهم، والذي اتصف بصفات تؤهله لقيادة مشروع رفع الظلم.

(١) «جامع البيان» (٥/ ٢٩١)، «جامع أحكام القرآن» (٣/ ٢٤٤)، «تيسير الكريم الرحمن» (١٠٧).

٣- خضوعهم للتدريب البدني والنفسي ليقوم الخلّص منهم بعملية رفع الظلم.

٤- اللجوء إلى الله والثقة بموعوده سبحانه.

٥- اصطفاء الخلّص والمصلحين في جيش رفع الظلم، فهم الأصدق عند اللقاء، والأكثر ثباتًا عند المحن.

٦- بذل الوسع والجهد في عملية رفع الظلم، وحينها يكون التأييد والنصر والتثبيت من الله للفئة المظلومة.

٢- سنة المدافعة، يقول محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «فدفع الله للناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون إن الحرب طبيعة في البشر؛ لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة، وأنت ترى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] ليس نصًا فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس، الذي يقتضي المدافعة والمغالبة»[١].

٣- سنة الابتلاء، فإن بني إسرائيل مع أنهم بين ظهراني نبي يوحى إليه، ومع أنهم على الدين الحق، إلا أنهم ابتلوا بالتهجير والطرد عن البلاد والأهل، ومع هذا كانوا ثابتين على الحق، متبعين ومطيعين لنبيهم، ومن بينهم عدد مبارك اصطفاهم الله ليكون النصر على أيديهم، فكان لهم ما أرادوا من رفع الظلم، ودحر الظالمين.

٤- سنة النصر والتمكين للمظلومين، إذا قاموا بشروط النصر وموجباته، وأزالوا موانعه، وأعدوا له عدته، وبذلوا جهدهم ووسعهم في رفع الظلم، يقول

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٤٩٥- ٤٩٨)، بزيادة وتصرف.

سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

«ولقد كان انتصار بنى إسرائيل على جيش طالوت نوع من أنواع التمكين التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم، وإن النظرة المتأملة للقرآن الكريم تُكسب الساعين لتطبيق الشريعة ثمار تجارب بشرية ضخمة، وتمدهم بخبرات الموكب الإيماني كله في جميع مراحله، وتورّث أجيال الأمة ميراث الأنبياء والمرسلين في نظرتهم للواحد الديان، وفي نظرتهم للحياة، والكون، وحقيقة الإنسان ومناهج التغيير التي خاضوها في هذه الحياة»(١).



(١) «فقه النصر والتمكين في القرآن» ص (٨١).

التطبيق الثاني: تيه بني إسرائيل:

- القصة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**غزا نبي**[١] **من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبنِ، ولا آخر قد بنى بنيانًا ولما يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنمًا أو خلفات وهو منتظر ولادها، قال: فغزا فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي شيئًا، فحبست عليه حتى فتح الله عليه...**» الحديث[٢].

---

(١) وهو يوشع بن نون عليه السلام. انظر «فتح الباري» (٦/ ٢٢١) «عمدة القاري» (٢٢/ ٢٦١).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري كتاب الخمس، باب قول النبي ﷺ (أحلت لكم الغنائم)، (٢٩٥٦)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة، (٤٦٥٣).

هذه الآيات البينات وهذا الحديث النبوي يبينان ملخص قصة تيه بني إسرائيل، وما آل إليه حالهم بعد أن نجاهم الله - بمعجزات عظيمة - من فرعون وقومه، فبعد هذه المعجزات، وبعد أن من الله عليهم بأن جعل منهم الأنبياء والملوك، وبعد أن أهلك الله عدوهم؛ أمرهم نبيهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، وأن يجاهدوا في سبيل الله ليتم التمكين، ويتم الله عليهم نعمه بدخول الأرض المقدسة، ولكنهم رفضوا أمره، وردوا طلبه بعبارة ساخرة تبين حقيقة ما في نفوسهم، فقالوا بكل وقاحة: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]، فكانت العقوبة الربانية العجيبة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦][١].

وفي حديث أبي هريرة يبين لنا رسول الله ﷺ جزءًا من تاريخ بني إسرائيل في نهاية التيه، فإن موسى وهارون عليهما السلام قد ماتا في فترة التيه، فتولى يوشع بن نون أمر بني إسرائيل، وجعله الله عليهم نبيًا، فقاتل معه خلص بني إسرائيل، ومن انطبقت عليه شروط يوشع القاسية والدقيقة، فخرج بهم من التيه، وأدخلهم الأرض المباركة.

● **السنن المؤثرة:**

يتجلى من خلال السياق القرآني السابق، وكذلك الحديث النبوي كثير من السنن الإلهية العظيمة ومنها:

---

(١) انظر: جامع البيان (١٠/ ١٩٠)، الجامع لأحكام القرآن (٦/ ١٢٣)، تيسير الكريم الرحمن (٢٢٧).

١- إن تخلف أسباب سنن بذل الجهد والوسع والمجاهدة والمدافعة والإعداد سبب رئيس في تيه بني إسرائيل، فمع أن الله أنقذ بني إسرائيل بسنن خارقة، كشق البحر لهم، وإغراق عدوهم في اليم، إلا أنهم لما دخلوا الأرض المقدسة، كلفوا بالجهاد وبذل الأسباب وتحقيق شروط النصر من خلال السنن الجارية وليست السنن الخارقة، فإن الله سخر لهم السنن الكونية الخارقة لنجاتهم لما بذلوا كل ما يستطيعون من أسباب النجاة، ولكنهم فهموا أن هذه السنن ستكون طوع يمينهم في النصر والتمكين وإن لم يبذلوا الوسع والجهد، وهذا فهم خاطئ استحقوا بسببه الهوان والتيه.

٢- سنة الجزاء من جنس العمل، تلك السنة التي كانت السنة البينة الواضحة في الحكمة من اختيار التيه كعقوبة لبني إسرائيل، فإنهم لما ضلوا ضلالًا معنويًا عن صراط الله المستقيم وسبيل النصر والتمكين مع توافر أسباب الهداية - من صحبة الأنبياء وقيادتهم - كان جزاؤهم التيه والضلال الحسي، يقول سبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد: ٣٣]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧].

٣- من سنن الله المؤثرة في تيه بني إسرائيل سنن الابتلاء والتمحيص والتمييز لأهل الإيمان، فلم يكن الجيل الذي فتح الله عليه بيت المقدس هو نفس الجيل الذي أنجاه الله من فرعون، ولكنه الجيل الذي ولد ونشأ في التيه، الجيل الذي مُحص وابتلي وتربى في التيه، وذاق ألم التيه عن سبيل الله، وعدم اتباع من أرسله الله لهم دليلًا وهاديًا، ومن ملامح الإمعان في التمحيص، تلك الشروط التي اشترطها يوشع عليه السلام فيمن سيشاركون في الحدث العظيم، فقال: «لا يتبعني رجل

قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبنِ[١]، ولا آخر قد بنى بنيانًا ولما يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنمًا أو خلفات وهو منتظر ولادها»، فإن الفتح شرف لا يستحقه من تعلق بالدنيا، وإن وجود من عمرت الدنيا قلوبهم في الجيش الغازي من أسباب الهلاك والخسران.

٤ - إن السنن الجارية في الأنفس والمجتمعات أمضى وأكثر اطرادًا من السنن الإلهية الكونية، فإن الله سبحانه عطّل بأمره سنة إلهية كونية وهي جريان الشمس، وأوقفها ساعة من نهار ليمضي سنته في الأنفس والمجتمعات، فقال يوشع للشمس: «أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها على شيئا، فحبست عليه حتى فتح الله عليه»[٢].

٥ - إن العقوبة الإلهية تكون عامة ولا تستثني أحدًا، فقد مات موسى وهارون في فترة التيه، وهذا يذكرنا بسؤال زينب لرسول الله ﷺ، حينما قالت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[٣].



(١) أي لم يدخل بها ويتزوجها.

(٢) سبق تخريجه ص (٩٣).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، (٣١٦٨)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، (٧٤١٦).

التطبيق الثالث: ذو القرنين:

● القصة:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٨٣-٩٨].

لم يبين لنا الله ﷻ خبر اسم أو زمان أو مكان الملك الصالح ذي القرنين، وكل ما هو متداول في الكتب معتمد على الإسرائيليات، ولو كان في معرفة ذلك خيرًا أو نفعًا لذكره الله في كتابه وسنة نبيه ﷺ.

وكل ما بينه الله لنا من سيرته أنه ملك صالح، آتاه الله العلم والقوة، وحسن التدبير والعدل، وأنه قام برحلات في مشارق الأرض ومغاربها، فأوَّلُها هي رحلته إلى مغرب الشمس، وذكر بعض المفسرين أنه شرق حوض البحر الأبيض

المتوسط، وملكه الله عليهم، وحكم بينهم بالعدل، ثم إنه رحل إلى مشرق الشمس فوجد أقوامًا قد علم خبرهم وملكه الله أمرهم، ثم رحل إلى ما بين السدين، فوجد فيه أمة مظلومة تسلط عليها يأجوج ومأجوج، فطلبوا منه أن يحميهم وينصرهم عليهم، فدلهم بخبرته على ما فيه حمايتهم، وصنع بإمكاناته وقوتهم البشرية سدًّا يحميهم من يأجوج ومأجوج[(١)].

● **السنن المؤثرة:**

في هذه الآيات التي ذكرت خبر ذي القرنين سنن إلهية كبرى، ومنها:

١ - سنة النصر والتمكين لأهل الإيمان، فكل ما وعد الله أهل الإيمان من أن العاقبة لهم، وأنهم المنصورون وأن الغلبة لهم، تحقق لذي القرنين ومن معه من المؤمنين.

٢ - سنة الأخذ بالأسباب، وأن الله ربط النتائج بأسبابها، بعد مشيئته وإرادته، فتمكين ونصر ذي القرنين لما يملكه من مؤهلات تؤهله لهذا التمكين، فما آتاه الله من العلم والحكمة، وحسن التدبير، وقدرته على إدارة هذه الجيوش الضخمة في تحركاتها من مشارق الأرض إلى مغاربها يدل دلالة كبيرة على أهليته واستحقاقه لهذا الملك والحكم، ولم يكتف ذو القرنين بممارسة سنة اتخاذ الأسباب لإدارة جنده ومملكته، بل تعدى ذلك إلى تعليم هذه السنة للأمم الأخرى، فلما استنصره من طلب الحماية من يأجوج ومأجوج، لم يصنع بنفسه السد مع قدرته على ذلك، ولكنه علمهم كيف يحمون أنفسهم، ودربهم على ذلك حتى قاموا ببناء السد.

---

(١) انظر: جامع البيان (١٨/ ٩٢)، جامع أحكام القرآن (١١/ ٤٥)، تيسير الكريم الرحمن (٤٨٥).

٣- إن الثروات والكنوز والمقدرات لا تغني شيئًا إذا طمس الله البصائر، وغاب القائد المصلح، ووسد الأمر إلى غير أهله، وهذا واضح في قصة بناء سد يأجوج ومأجوج، فقد بناه ذو القرنين من الحديد والنحاس الذي كان ضمن ممتلكات الأمة المظلومة، وهي التي أحضرت المادة الخام له، ولكنها كانت أمة تفتقد القيادة والإدارة والهداية من الله، يقول سبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٣].

٤- سنة العدل، وهذه ظاهرة في قوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٨]، فقدرته على الحكم، لم تمنعه من إقامة العدل بين الناس، وهذا ما أثمر متانة ملكه، وسعة مملكته.

٥- سنة الخذلان وتسليط العدو، وأن سبب ذلك ما قدمته أيدي الناس، فتجد أن الأمة المظلومة التي تعرضت لبطش يأجوج ومأجوج جمعت عدة أسباب تجعلها أمة جديرة بالهوان وتسليط الظالم عليها:

١- فهم قوم ضعفاء، ولذلك عجزوا عن صد هجمات يأجوج ومأجوج، والوقوف في وجههم، ومنع إفسادهم، ولذلك لجؤوا إلى قوة أخرى، قوة ذي القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم.

٢- هم قوم كسالى، لا يريدون أن يبذلوا جهدًا ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحالوا المشكلة على ذي القرنين، وأوكلوا إليه حلها، أما هم فمستعدون لدفع المال فقط[١].

---

(١) انظر: الخالدي «مع قصص السابقين» (٢/ ٣٣٨)، «فقه النصر والتمكين» (١٥٧).

٦- ختم الله القصة بالتأكيد على سنة الآجال يقول سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨]، فلكل شيء أجل، حتى ذلك السد الذي أبدع ذو القرنين في بنائه وتصميمه، وقد أخبر النبي ﷺ، أن هذا السد بدأ بالانهيار في حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «**لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث**»(١).



(١) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، (٣١٦٨)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، (٧٤١٦).

المطلب الثاني:
تطبيقات السنن الإلهية في الظلم في الأمة الإسلامية

مما تميزت به أمة محمد ﷺ عن غيرها من الأمم، أن نصرها وتمكينها كان بسنن الله الجارية لا الخارقة، إن إرادة الله ﷻ قد اقتضت أن يتم أمر هذا الدين على السنن الجارية - لا الخارقة - لحكمة أرادها الله، لكيلا يتقاعس جيل من الأجيال فيقول: إنما نصر الجيل الأول بالخوارق، وقد انقطعت الخوارق بعد رسول الله ﷺ!

وفي هذا المطلب أستلهم السنن الإلهية من أحداث السيرة النبوية من حدث في العهد المكي، وحدث في العهد المدني، وما بينهما الحدث العظيم الهجرة النبوية المباركة:

التطبيق الأول: حصار الشعب.

● **الحدث:**

وقع حصار الشعب في سنة سبع من البعثة، وكان سببه فشو الإسلام بعد أن دخل فيه حمزة رضي الله عنه، فساء ذلك قريشًا، وأجمعوا على التكالب على بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف: ألا يبايعونهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة.

ويقال: إن الذي كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف، ويقال: بل النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده.

وانحاز إلى الشعب بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب فإنه ظاهر قريشًا، وبقوا على تلك الحال لا يدخل عليهم أحد نحوًا من ثلاث سنين، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، حتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًّا، وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في قيمة السلعة حتى لا يستطيعوا شراءها.

ثم سعى في نقض تلك الصحيفة أقوام من قريش، ومشى في ذلك المطعم بن عدي وجماعة من قريش، وأخبر رسول الله ﷺ قومه أن الله قد أرسل على تلك الصحيفة الأرضة، فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله ﷻ، فكان كذلك.

ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة، وحصل الصلح برغم من أبي جهل عمرو بن هشام(١).

● **السنن المؤثرة:**

يعتبر حصار الشعب من أشد ما مر على النبي ﷺ وصحبه من البلاء، وقد حمل في طياته العديد من السنن الإلهية، ومنها:

١- سنة الابتلاء لأهل الإيمان والتي تجلت بشتى صورها وألوانها، فقد اجتمع على النبي ﷺ وأصحابه في هذا الحصار صور من البلاء والظلم، ومنها:

---

(١) ابن كثير «الفصول في سيرة الرسول» ص(١٣) ابن هشام «السيرة النبوية» (٢/ ١٩٥).

١- الألم جسدي، وكان من آثاره شدة الجوع والمرض بسبب قلة المؤن وغلائها، حتى كان الناس يسمعون بكاء النساء والأطفال من الجوع.

٢- الألم النفسي، وكان من أثره أن البلاء وصل إلى القبيلة جميعها، فقد كان منهم الكبير والطفل والمرأة، وكان منهم الكافر الذي لم يسلم بعد، وهذا له أثر كبير على المؤمنين، فكل هذا العذاب كان سببه عدم تسليم النبي ﷺ وصحبه لقريش.

٣- الألم الاجتماعي، فقد هجرت قريش بني هاشم في السلام والكلام والمناكحة، وهذا له أثره الاجتماعي على مجتمع قبلي تقل فيه العلاقات الاجتماعية والمصاهرة من خارج القبيلة، فمن أعظم الخسارة في المجتمعات القبلية الطرد والحصار من القبيلة، وهو أشبه بما يسمى اليوم بحصار المجتمع الدولي، إذ تتعذر الحياة الكريمة لمن تنفيه قبيلته، فهي مصدر قوته ومكانته في المجتمع.

٤- الحصار لم يكن مدة قصيرة يسهل الصبر عليها، فمع تنوع آلامه استمر ما يقارب ثلاث سنوات.

٢- سنة الاستبانة والفضح لسبيل المجرمين، فقد كان الحصار فضيحة أخلاقية كبرى عيرت بها قريش، فقد قال فيهم أبو طالب قصائد هجاء سارت بها الركبان، وتناقلتها أفواه الرواة، فكان الحصار سببًا في استبانة سبيل المجرمين، وفضح خبيئة نفوسهم، في عمل دنيء لم يسبقوا إليه، فقد منعوا الطعام عن أهلهم وأطفالهم ونسائهم، وهذا ما لم تعرفه العرب في تاريخها.

٣- سنة نصر الله للمظلومين، فقد أعطى صبر النبي ﷺ وصحبه الكرام مفهومًا آخر للنصر، فثباتهم على المبدأ، وصبرهم على الأذى، مع ضخامة الابتلاء، كان

نصرًا كبيرًا، فقريش لم تحقق أهدافها من الحصار؛ فقد كان هدفها الأول تسليم النبي ﷺ إليها، وهذا لم يتحقق لهم، وزيادة على ذلك فقد خسرت معركة إعلامية كبرى لم تكن في حسبانها، فالحصار أعطى بعدًا إعلامياً للدعوة الجديدة والنبوة الخاتمة، فقد سرى خبرها بين أهل الجزيرة، وصنع علامات استفهام كبرى، جعلت الكثيرين يتوافدون للسؤال عن حقيقة الحدث، فهم أمام معركة جديدة، معركة بين طرفين، طرف يعذب ويظلم ويحاصر ويقتل، وطرف آخر يكف يده ويصبر وينادي برسالة لم يسمعوا بمثلها، فكسب النبي ﷺ وصحبه تعاطف أهل الجزيرة العربية، ومقت الناس قريشًا، فكان ذلك من ممهدات انتشار خبر الدعوة في أطراف الجزيرة العربية، ومن عظيم كيد الله لأهل الإيمان، ومكره بالظالمين، وصدق الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠][1].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث» (١/ ٢٧٨).

التطبيق الثاني: الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

● **الحدث:** الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة النبوية حدث ضخم، وهو في حقيقته عدة أحداث متداخلة، كونت في النهاية هذه النقلة الكبرى في تاريخ النبوات والرسالات عمومًا، وفي تاريخ أمتنا على وجه الخصوص.

ويتلخص الحدث في إذنه سبحانه لرسوله ﷺ وصحبه بالهجرة من مكة إلى المدينة، في السنة الثالثة عشرة من البعثة، وإذن النبي عليه الصلاة والسلام للصحابة بالهجرة، ثم خروجه من مكة إلى غار ثور برفقة أبي بكر الصديق، ومكوثه في الغار عدة أيام، ثم سيره إلى المدينة عن طريق الساحل برفقة أبي بكر الصديق، ثم وصوله لقباء حيث مكث فيها بضعة عشر يومًا، ثم دخل المدينة في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول في السنة الثالثة عشرة من البعثة، وما تضمن ذلك المسير من أحداث، سيأتي ذكر بعضها عند ذكر السنن المؤثرة.[١]

● **السنن المؤثرة:**

لهجرة النبي ﷺ أثر كبير في تاريخ الأمة الإسلامية، وتعتبر منعطفًا كبيرًا في مسار الدعوة، فقد انتقلت بالدعوة من الجماعة المستضعفة، إلى الدولة الممكنة، وهي من أكثر أحداث السيرة النبوية ثراء في باب السنن الإلهية، فقد تجلت فيها السنن الإلهية الخارقة المعجزة، والسنن الإلهية الجارية في الأمم والأفراد، فمن السنن الإلهية الخارقة والمعجزة، ما ألقاه الله من غشاوة على عيون من تربص بالنبي ﷺ عند خروجه من بيته للهجرة، عندما أعمى أبصارهم من النظر إليه في غار ثور، وما وقع لسراقة بن مالك عندما ساخت قوائم فرسه في التراب[٢]،

(١) انظر: ابن هشام «السيرة النبوية» ص (٣/ ٥)

(٢) عماد الدين خليل «دراسة في السيرة» ص (١٤٠) بتصرف

أما السنن الإلهية الجارية في الأمم والأفراد فكثيرة، أقتصر على أهمها، وهي:

١- سنة الحفظ والحماية الإلهية لأهل الإيمان من الرسل عليهم السلام وأتباعهم، وهي سنة متجلية بوضوح في حدث الهجرة النبوية، فمن حفظه سبحانه لرسوله ﷺ في هذا الحدث:

١- حفظ الله نبيه ﷺ من محاولة قتله عند خروجه للهجرة، وإلقاء الغشاوة على عيون المحاصرين له.

٢- حفظ الله نبيه ﷺ في غار ثور، فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟**»(١).

٣- حفظ الله نبيه ﷺ من ملاحقة سراقة بن مالك له، حتى ساخت يدا فرسه في الأرض، حتى قال له: «**كيف بك إذا لبست سواري كسرى**»(٢).

٢- سنة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فمع حفظ الله لنبيه عليه الصلاة والسلام، ومع معيته له، فإنه اتخذ كل التدابير اللازمة، وكل الاستعدادات المهمة، وكل الأسباب التي تجعل مشروع الهجرة مشروعًا ناجحًا بكل المقاييس، ومن الأسباب التي اتخذها النبي ﷺ:

١- إذنه للصحابة بالهجرة قبل هجرته حماية لهم، وتمهيدًا لقدومه ﷺ إلى المدينة.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، (٣٤٥٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، (٣٦١٩).

(٢) السهيلي «الروض الأنف» (٤/ ٢١٨).

٢- اختيار غار ثور مكة مكانًا للتواري عن أنظار قريش، والمكث فيه لعدة ثلاثة أيام.

٣- اختيار الطريق الساحلي غير المسلوك طريقًا للمدينة.

٤- صناعة فريق عمل متكامل لإنجاح مسيرة الهجرة المباركة، والذي ضم كلًّا من: (أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله وأسماء ابني أبي بكر الصديق، والدليل عبد الله بن أريقط، والراعي عامر بن فهيرة)، وإدارة هذا الفريق إدارة عالية الجودة، في خطة محكمة، وتبادل للأدوار.

٣- سنة بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة في الهجرة: فمع توكله ﷺ على ربه تعالى إلا أنه ﷺ بذل وسعه واستفرغ طاقته في إتقان خطة الهجرة، وتوفير مسببات نجاحها، فكانت نتائجها تفوق ما قدمه ﷺ من جهد، فقد جمع النبي ﷺ بين بذل الجهد وإحسان العمل، فكان جزاؤه الهداية إلى سبل الفوز والنجاح، يقول سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٤- تعتبر سنة التغيير من السنن الكبرى في الهجرة النبوية، فقد غير الله بها حال المظلومين من الاستضعاف إلى التمكين، ومن الجماعة الصابرة إلى الدولة الممكنة، لمّا قاموا بأسباب التغيير وسننه، من الصبر على الأذى، والثبات على الحق، والسمع والطاعة لنبيهم في أحلك الظروف وأصعبها، فكان لهم ما أرادوا من التغيير والتمكين.

٥- سنة التدرج بدت ظاهرة في الهجرة النبوية، فقد مهد النبي ﷺ للهجرة بممهدات، سهلت مرحلة الانتقال، وجعلت نفوس الصحابة في مكة تتهيأ لها وتتوق لها، وجعلت الأنصار يتهيؤون لاستقبال النبي ﷺ وصحبه، ومن هذه الممهدات:

١- بعث مصعب بن عمير إلى المدينة معلمًا وداعيًا.

٢- الإذن للصحابة بالهجرة قبل هجرة النبي ﷺ.

٣- النزول في قباء وبناء مسجدها قبل دخول المدينة ببضعة عشر يومًا.

٦- سنة الابتلاء وهي من السنن الظاهرة في هجرته عليه الصلاة والسلام، فإن إخراجه ﷺ من أرضه وأهله من عظيم البلايا والمحن، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: **«والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»**(١)، والابتلاء بالإخراج من الأرض من سنن الله في أنبيائه، ويدل على ذلك ما قاله ورقة بن نوفل حينما استشاره النبي ﷺ عند بدء الوحي: **«يا ليتني فيها جذعا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم فقال ورقة نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرًا»**(٢).

٧- سنة النصر والتمكين، فقد كانت الهجرة نهاية الظلم والاستضعاف، وبداية النصر والتمكين، ففيها تحقق وعد الله للمظلومين في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل مكة، (٣٩٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، (٣٩٢٥).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (٤٢٢).

التطبيق الثالث: في غزوة حنين.

● الحدث:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما بلغ فتح مكة هوازن وثقيف وغيرهم، استصحبوا معهم أنعامهم ونساءهم لئلا يفروا، وبعث ﷺ العيون فاستعلموا له خبر القوم وقصدهم، وسار إليهم في العشرة آلاف الذين كانوا معه في الفتح، وألفين من طلقاء مكة، ثم سار النبي إلى حنين، وقد كمنت لهم هوازن فيه، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، ففر المسلمون، فذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥]، وذلك أن بعضهم قال: «لن نغلب اليوم من قلة»، وثبت رسول الله ﷺ، ولم يفر، ومعه السابقون الأولون، فقد اجتمع حوله عصابة منهم نحو المائة، فاستقبلوا هوازن، واشتدت الحرب، ففرت هوازن، وتبعهم المسلمون وقد أسروا منهم خلقًا، وغنموا خيرًا كثيرًا»(١).

● السنن المؤثرة:

الغزوات بعمومها من مظان السنن الإلهية، ولكن غزوة حنين على وجه الخصوص، احتوت على العديد من السنن الإلهية، ومنها:

١ - سنة التدافع بين الحق والباطل تعتبر معلمًا واضحًا في الغزوات في عصر النبوة، فإن الله أزال بأهل الحق الباطل وأهله، يقول سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى

---

(١) «الفصول» باختصار وتصرف ص(٨٣).

ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨].

٢- ثبات سنة اتخاذ الأسباب وربطها بنتائجها ممن كانت، سواءً من أهل الحق أو من أهل الباطل، فلما قصّر عين رسول الله ﷺ في جمع خبر هوازن، وفهم خططها، وقع الجيش الإسلامي في كمينهم، وكانت الهزيمة في أول المعركة، ولما ثبت النبي ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، كانت الدولة لهم وفتح الله عليهم.

٣- إن النصر يكون لمن ينصر الله ويعظمه، يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧]، فلما وقع العجب في نفوس بعض الصحابة وهذا نقص في نصرتهم لربهم، أصابهم من الأذى بقدر ذلك.

٤- إن الأسباب المعنوية من اليقين والثبات وحسن الظن بالله، أقوى من الأسباب الحسية كالعدد والعتاد، يقول محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عنايته تعالى وتأييده لرسوله وللمؤمنين بالقوى المعنوية، أعظم شأنا وأدنى إلى النصر من القوة المادية، كالكثرة العددية وما يتعلق بها»(١).

٥- تبين في هذه الغزوة أن الإعداد والتهيئة من سننه سبحانه في رفع الظلم، فلم يثبت مع النبي ﷺ إلا من تلقى الإعداد النبوي والتربية الربانية من المهاجرين والأنصار، أما حديثو العهد بالكفر والطلقاء فكانوا أول الفارين، رضي الله عنهم أجمعين.

٦- التشبه بالأمم السابقة من السنن الربانية الماضية المسببة للظلم، فالتشبه باليهود والنصارى من أسباب خسارة الأمة وخذلانها، وتسليط الظالمين عليها،

---

(١) «المنار» (١٠/ ٢١٧).

فعن أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما افتتح رسول الله مكة، خرج بنا معه قبل هوازن، حتى مررنا على سدرة الكفار: سدرة يعكفون حولها، ويدعونها ذات أنواط، قلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر، إنها السنن، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾** [الأعراف: ١٣٨]»(١).

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب لتركبن سنن من كان قبلكم، (٢١٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، (٢١٨٠).

المطلب الثالث:
تطبيقات السنن الإلهية في الظلم في العصر الحديث

يتبين لنا في هذا المبحث اطراد السنن الإلهية قديمًا وحديثًا، وثباتها في كل زمان ومكان، ووقوعها في حق كل أمة مسلمة كانت أو غير ذلك.

وقد اخترت حدثين متشابهين من العصر الحديث، ليكونا تطبيقًا لهذا المطلب، فكلاهما من باب سقوط الدول، إلا أن أحدهما كان سقوط دولة مسلمة، والآخر سقوط دولة كافرة، ليتبين لنا اطراد السنن الإلهية في كل الأمم والملل.

التطبيق الأول: سقوط الدولة العثمانية:

● **الحدث:**

يعتبر زوال الدولة الإسلامية من أعظم ما أصيبت به الأمة الإسلامية في تاريخها، والذي تمثل في سقوط آخر سلاطين الدولة العثمانية، هذه السلطنة التي جمعت العالم الإسلامي تحت راية واحدة وسلطان واحد، وكانت حامية للعالم الإسلامي من الاستعمار والحملات الصليبية قرابة الخمسة قرون، وقد كان سقوطها على يد الجمعيات التركية الطورانية[١].

---

(١) نبتت الحركة في الآستانة سنة ١٣٣١ ثم أخذت تنتشر في أجزاء كثيرة من السلطنة، وقد امتازت هذه الحركة بكونها مقصورة على فئة مخصوصة غايتها توحيد القومية التركية بالعنصرية الجنسية دون الروابط الدينية الإسلامية. وسعت الحركة لعدة أهداف: أولها: أن تجعل الأتراك أمة قائمة بذاتها مستقلة عن الدين الإسلامي تمام الاستقلال حتى يتهيأ لها أن تربي فيهم ذلك الشعور القومي، ثانيها: ترقية الروح العسكري التركي فقط، ثالثها: إنشاء العلاقات =

● السنن المؤثرة:

١ - سنة خسران الظالمين:

تعتبر سنة خسران الظالمين وخيبتهم، من السنن الإلهية الماضية في كل أمة وفي كل زمن، يقول سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧]، ويقول ﷻ: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ [طه: ١١١]، يقول شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام»[(١)].

فقد انتشر الظلم في أواخر الدولة مما كان مؤذنًا بسقوطها واضمحلالها، فاستغل المناوئون لها الداعون لسقوطها هذه المظالم فكانت من أسباب سقوطها، في عدة جوانب، شملت الجانب التعبدي، وتمكينها للخرافة والطرقية، والجانب المالي الاقتصادي، فقد كان الخلفاء ومن حولهم يعيشون في ترف وتبذير، وبقية الشعوب الإسلامية ينهشها الفقر والجوع.

٢ - سنة التغيير:

قامت الدولة العثمانية على الجهاد في سبيل الله، ونشر الدعوة الإسلامية، والأخذ بأسباب النصر والتمكين والقوة، ولم تملك هذه الرقعة الواسعة من

= التجارية وغيرها من الصلات بين مسلمي بلاد العجم الشمالية (أذربيجان) وبلاد روسيا في آسيا والأجزاء الجنوبية منها، رابعها: تطهير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية ومن آداب هاتين اللغتين، وأكبر آمال هذه الجمعية أن تجعل التركي العثماني يعد نفسه تركيًا قبل كل شيء، وأما كونه مسلمًا فيعد عنده من المسائل الثانوية التي لا تهمه كثيرًا، انظر: مجلة المنار، (١٩/ ٥٠١).

(١) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٤٦).

المساحة، ولم تستطع المحافظة عليها كل هذه السنوات، إلا بالجهاد وتكوين جيوش قوية تحافظ على هذه المملكة المترامية الأطراف.

ثم ما لبثت أن غيرت ما قامت عليه، وتركت أسباب قوتها وتمكينها، ومن هذا التغيير.

١- الركون إلى الدنيا والمبالغة في الترف، والانشغال ببناء القصور وجمع الجواهر والأموال، والاستكثار من الحريم والجواري والغلمان، حتى عد المؤرخون أن سلطة الحريم والعبيد في الدولة العثمانية كانت من أسباب السقوط والأفول[١].

٢- انتشار الظلم وتسليط طبقات من المجتمع على بعض، ومن ذلك نظام الاقطاع الذي مكن للعسكر الذي جعل الفلاحين مجرد أجراء عند العسكر، لا يأخذون إلا فتات ما تنتجه المحاصيل الزراعية.[٢]

٣- توسع نفوذ العسكر وطغيانهم وتحكمهم بقرارات الدولة السيادية، والتأثير على الخلفاء والتسلط على بعضهم، حتى بلغ الأمر إلى عزل بعض الخلفاء وقتل بعضهم.[٣]

٤- **التضييق على العلماء**، والتمكين للصوفية والخرافة، وغض الطرف عن الفرق المارقة كالقاديانية[٤]، ومحاربة الدعوات الإصلاحية في الجزيرة

---

(١) الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» ص (١/ ٦٨٧)

(٢) المرجع السابق ص (١٣١)

(٣) المرجع السابق ص (٥٠٣)

(٤) نحلة تنسب الى (غلام أحمد القادياني)، نسبت الى قرية قاديان من إقليم البنجاب في الهند =

العربية[١].

٥- والتمكين للأعداء بإعطائهم الامتيازات الكبيرة، وغض الطرف عن المؤسسات التنصيرية[٢] والماسونية المشبوهة التي انتشرت في عهود أواخر الخلفاء[٣].

فلما كان التغيير في التخلي عن أسباب الاستخلاف والتمكين، كان التغيير الذي انتهى بالاستبدال والاضمحلال، يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣]، ويعتبر التغيير من السنن الإلهية الكبرى الماضية في الأمم، ومن قرأ تاريخ الدولة العثمانية وقارن بين أول ما قامت عليه، وما آل إليه حالها، عرف ضخامة التغيير الذي قام به أواخر السلاطين العثمانيين، وأستثني عبدالحميد الثاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد حاول أن يعيد الدولة إلى سابق عهدها، ووقف مواقف مشرفة، تشهد له بالصلاح والخير[٤]، ولكنه تولى أمر دولة كانت قاب قوسين أو أدنى من السقوط.

٣- سنة فشل المتنازعين.

يقول سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟

= (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) وهي حركة نشأت بتخطيط من الاستعمار الإنكليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الاسلام.

(١) «الدولة العثمانية أسباب السقوط وعوامل النهوض» (٢/ ١٩٦) وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص (٧٤٥)

(٣) خلف الوذيناني «الدولة العثمانية والغزو الفكري» ص(٢٧٠)

(٤) انظر: محمد فريد بك «تاريخ الدولة العلية الثمانية» ص(١/ ٥٧٨) وعلي حسون «عوامل انهيار الدولة العثمانية» ص(١٦٩) و «الدولة العثمانية عوامل النهوض » (٢/ ٢٣)

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦]، فإذا كان هذا الوعيد المخيف في حق أصحاب رسول الله ﷺ، فكيف بغيرهم ممن هو دونهم.

وقد بلغ التنازع بين السلاطين العثمانيين مبلغًا كبيرًا حتى وصل لقتل الأبناء والإخوان من أجل الملك والنفوذ(١)، حتى تسلط بعضهم على بعض، ومكر بعضهم ببعض، مما جرأ عليهم أمراء الأقاليم، ومهد لقيام الدعوات الانفصالية المدعومة من المستعمر الأوربي(٢)، وهذا التنازع نتج عنه الفشل وذهاب الريح كما في التعبير القرآني(٣).



(١) «تاريخ الدولة العلية» ص(١٩٦)

(٢) الوذيناني «الدولة العثمانية والغزو الفكري» ص(٤٨٠)

(٣) انظر: «عوامل انهيار الدولة العثمانية» (١/ ٢٦٢)، و«الدولة العثمانية» (١/ ٣٦٢)، عبد الحليم عويس «دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية» ص(٥٢)، أمحزون «السنن الاجتماعية في القرآن» (٢/ ٦٩٥).

التطبيق الثاني: سقوط الاتحاد السوفيتي.

● **الحدث:**

الحدث هو سقوط وتفكك ثاني أقوى قوة عسكرية في العالم، وأضخم دولة من حيث المساحة والثروات، ضمت في اتحادها العشرات من الجمهوريات، وكانت أحد القطبين المتنفذين في سياسة الشعوب وثرواتها - فقد كانت تتقاسم العالم سياسيًا مع الولايات المتحدة الأمريكية - فتحولت من دولة إلى دويلات، ومن جمهورية اتحادية إلى العديد من الجمهوريات.

● **السنن المؤثرة.**

يعتبر سقوط الاتحاد السوفييتي(١) من الأحداث التي برزت فيها السنن الإلهية في العصر الحديث، فقد كان سقوطه وتفككه - وهو يملك ثاني أقوى جيش في العالم، ويملك العديد من الثروات الاقتصادية والزراعية والحيوانية والبشرية- صدمة لكثير من قارئي التاريخ، ولكنه لم يكن صدمة لمن لديه أدنى اطلاع على سنن الله في الأمم والشعوب، فإن العارف بالسنن الإلهية يعلم أنه كان يحمل بذرة سقوطه وهلاكه منذ نشأته وولادته، فكل من علم شيئًا من السنن الإلهية تيقن زواله منذ نشأته، فقد تظافرت على سقوطه العديد من السنن الإلهية، ومنها:

١ - سنة التدافع بين الحق والباطل.

كان سقوط الاتحاد السوفييتي نتيجة لسنة التدافع بين الأمم عمومًا، والتدافع

---

(١) اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية دولة دستورية شيوعية سابقة شملت حدودها أغلب مساحة منطقة أوراسيا في الفترة ما بين عامي ١٩٢٢ وحتى ١٩٩١. ويعرف عامة بالاسم القصير له وهو الاتحاد السوفيتي. نقلا عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

بين الحق وأهله والباطل وأهله على وجه الخصوص، فقد كان للأمم المنافسة دور كبير في عملية سقوطه وتفككه، وقد كان لأهل الحق دور مؤثر في استنزافه في الجهاد الأفغاني، هذا الجهاد الذي أنهك الاتحاد السوفيتي عسكريًا واقتصاديًا وبشريًا، فثبات المجاهدين وصبرهم، كان له دور لا ينكره كل من درس سقوط الاتحاد السوفييتي.

٢- سنة خسران الظالمين.

الاتحاد السوفييتي من أكثر الدول التي انتشر وتنوع فيها الظلم، وبلغ غايته بإهلاك الملايين من الأنفس، واحتلال العديد من البلاد، واستخدام القوة المفرطة في القضاء على الشعوب والثورات.

ومن أعظم ما حملته من الظلم هو ما تبنته من الشيوعية الملحدة، والمادية الغالية.

ومن الظلم الذي حملته هذه الدولة الظالمة:

١- تهجيرها لمئات الآلاف من سكان الجمهوريات أيام الحرب العالمية الثانية، حتى بلغت أدنى الإحصاءات عام ١٩٣٩م أن عدد المهجرين من الجمهوريات السوفيتية (١٦٥٠٠٠٠) مليون وستمائة وخمسون مهجرًا غالبهم من المسلمين[١].

٢- قتل الملايين من سكان الجمهوريات عند ضمها للاتحاد السوفييتي[٢]،

---

(١) روبرت كونكوست «قتلة الأمم» (٨٩) ترجمة صادق إبراهيم عودة.

(٢) المرجع السابق

فقد بلغ عدد القتلى من المسلمين ما لا يقل عن عشرين مليون مسلم[١]، والاستخدام المفرط في القوة في حروبها مع هذه الجمهوريات.

٣- ملاحقة وقتل أتباع الأديان السماوية، ومنعهم من ممارسة عباداتهم وشعائرهم، حتى كان العثور على المصحف أو رفع الأذان يعتبر جريمة يستحق صاحبها الإعدام أو السجن.[٢]

ويتبين لنا أن هذه الدولة جمعت بين الظلم في علاقتها مع ربها، والظلم في علاقتها مع الناس، فكان جزاؤها الخيبة يقول سبحانه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١١١] والخسران والبعد عن الفلاح يقول سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٢١]

٣- سنة تسليط الظالمين على الظالمين.

من سننه سبحانه في الظالمين أن يسلط عليهم أمثالهم أو من يفوقونهم في الظلم يقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، ومن ذلك تسليط المعسكر الغربي على المعسكر الشرقي إبان الحرب الباردة بين الطرفين، فقد كان للمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية دور كبير في سقوط الاتحاد السوفييتي، فالحرب الباردة كانت حامية على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية، وكانت كتائب الجواسيس، وتكنولوجيا التنصت تبلي بلاءً كبيرًا في إدارة رحى الحرب الباردة، وبلغت ذروة هذه الحرب في الحروب بالوكالة التي اندلعت بين المعسكرين في أكثر من جبهة، وكان لها دور كبير في استنزاف القوة العسكرية

---

(١) مجلة المجتمع عدد ١١٤٦

(٢) المرجع السابق

والاقتصادية والبشرية على الاتحاد، مما أثر على الوضع الأمني والاجتماعي والفكري، الذي نتج عنه تفكك هذا الاتحاد وانهياره بيدي أهله.

٤- سنة ثبات الفطرة، وخسارة من يصادمها.

من سننه سبحانه في الخلق، أن فطرته التي فطر الناس عليها، لا يستطيع مخلوق تغييرها، ومن حاول تغييرها فهو إلى زوال وهلاك، يقول سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]، فقد تحطمت النظرية الماركسية تحت مطارق الفطرة في معظم أجزائها الرئيسية، ولم يبق إلا كيان الدولة والأنظمة الديكتاتورية البوليسية، وحتى هذه الشعوب التي ترزح تحت وطأته فإن فطرتها تقاومه مقاومة عنيفة - على الرغم من طول خضوعها قبله للقيصرية، فكان لابد أن يكون هذا النظام من الكراهية والاصطدام بالفطرة إلى الحد الذي لا تجدي كل هذه العوامل الساحقة في جعله آمنًا على نفسه من انتقاض الفطرة، التي يستحيل أن تصبر طويلًا على مثل هذا النظام المتعسف - وآية الفشل لأي نظام لا يقوم إلا في حراسة الإرهاب والظلم.

٥- سنة آجال الأمم.

ومن سنن الله تعالى البارزة في سقوط الأمم أن لكل منها أجل يقول سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤] يقول الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأجل المضروب في الآية هو الوقت المضروب لانقضاء مدة أو زمن الإمهال»[(١)]، وأن هذه الأمم لها أعمار فإذا استوفت عمرها

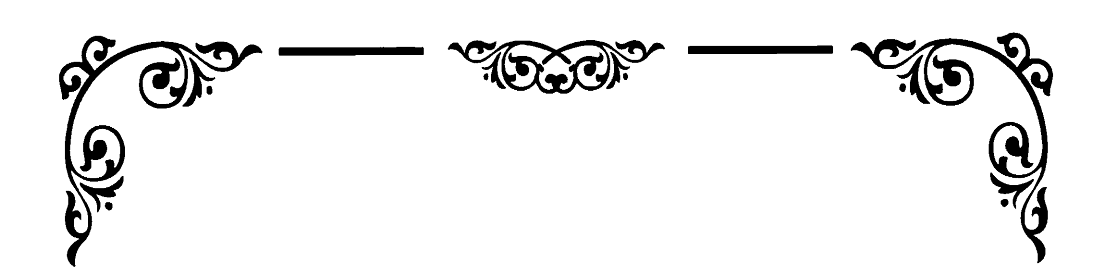
(١) «التحرير والتنوير» (٨/ ١٠٣).

مرضت ثم ماتت، يقول ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال»[١]، ويقول في موضع آخر: «وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر، ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده، إلا إذا عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب، فيكون الهرم حاصلًا مستوليًا والطالب لم يحضرها، ولو جاء الطالب لما وجد مدافعًا»[٢]، وهذه السنة ظاهرة في سقوط الاتحاد السوفييتي فقد بدأ قويًا متماسكًا، فما لبث أن سقط بعدما كثرت أمراضه، وتكاثرت مسببات زواله، ومجيء أجله، وانقضاء عمره، وصدق الله القائل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

---

(١) ابن خلدون «المقدمة» (٨٤).

(٢) «المقدمة» (٨٦).



المبحث الرابع:
آثار السنن الإلهية في الظلم

ويشمل:

المطلب الأول: آثار السنن الإلهية في الظلم على الأفراد.

المطلب الثاني: آثار السنن الإلهية في الظلم على المجتمعات.



لمعرفة السنن الإلهية في الظلم آثار كثيرة على الفرد والمجتمع، وتزداد الحاجة الى هذه الآثار في أزمان الفتن، وتسارع الأحداث واضطرابها، فمن وفقه الله إلى معرفة السنن الإلهية في الظلم، عاد عليه ذلك بالنفع الكبير.

وفي هذا المبحث أستعرض آثار معرفة السنن الإلهية على مستوى الفرد والمجتمع، وقد قسمته إلى مطلبين:



المطلب الأول:
آثار السنن الإلهية في الظلم على الأفراد

١- معرفة السنن الإلهية في الظلم، واليقين بها، تورث الطمأنينة والسكينة في نفس المظلوم، فمعرفته بسنة إهلاك الظالمين وخسارتهم في الدنيا والآخرة، ومعرفته بعدم استمرار الظلم مهما طال، تكسبه شعورًا بالطمأنينة يمكنه من الصبر على الابتلاء، ومدافعة الظلم ورفعه، يقول محمد رشيد رضا في هذا المعنى: «ومن الخير والنعم ما قدره الله من آثار السنن الإلهية وأخبر به الوحي من ترتيب العقاب على العمل السيئ، فإن ذلك أعظم مرب للناس وعون لهم على الارتقاء في الدنيا والسعادة في الآخرة»[(١)]

٢- معرفة السنن الإلهية في الظلم، يورث الإيجابية والفاعلية في التعامل مع الظلم والظالمين، فمن أيقن بحتمية زوال الظلم، وأيقن بسنن النصر والمدافعة، جعله ذلك يسعى لتحصيل ما يعينه على دفع الظلم ورفعه، وهذه الفاعلية تجعل المظلوم ينشغل بإعداد نفسه لرفع الظلم في المستقبل، وإن لم يستطع رفعه في الوقت الحالي.

٣- معرفة السنن الإلهية في الظلم، والإيمان بها، يورث لدى المظلوم تفاؤلًا وهو في أحلك الظروف والمواقف، فمعرفته بسنن الله في تعامله مع الظالمين، ونصرته للمظلومين يمده بالتفاؤل الباعث على حسن ظنه بالله سبحانه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي**»[(٢)].

---

(١) «تفسير المنار» ص (٣/ ٢٢٤) بتصرف.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، =

٤- معرفة السنن الإلهية في الظلم، يساهم في استشعار المسلم لمعاني أسماء الله وصفاته، فيتجلى فيها اسم : العليم والخبير والحكيم والحليم، وصفات العدل والحكمة والعلم والحلم، واستشعار عظيم تدبير الله سبحانه لخلقه، ومعيته لعباده المؤمنين، ولذلك أثر كبير في نفس المظلوم إن كان من أهل الإيمان.

٥- العلم بالسنن في الظلم يعين المظلوم على أن يتعبد إلى الله في كل حال بأنواع العبادات في كل حال، يقول النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**»(١)، فالمؤمن الذي يستشعر سنن الله لا ينفك عن عبادة توافق سننه سبحانه، فإن مُكِّن تعبد لله بإقامة شرعه، وإن استُضْعِف وظُلم، تعبّد لله بالصبر والمجاهدة في رفع الظلم، وليس ذلك إلا للمؤمن.

٦- معرفة السنن الإلهية تمكن قارئ التاريخ من فهم صحيح شامل للتاريخ، وتفسير صادق لأحداثه، فالعارف بالسنن الإلهية سيطّرد عنده أسباب إهلاك الله للأمم المهلكة والمعذبة قديمًا وحديثًا، وأسباب تمكينه لبعضها، وستتبين له الحكمة الإلهية من الإمهال والإملاء والابتلاء وغيرها من السنن، والتي ستبرز له جلية وهو يقرأ التاريخ، فسيراها مطردة متسقة مع بعضها مهما اختلف الحدث الذي يقرؤه، ومهما اختلف زمان وقوعه.

٧- السنن الإلهية في الظلم تمنح المظلوم تصورًا حقيقيًا وواقعيًا للمستقبل، فالسنن الإلهية أداة من أدوات استشراف المستقبل، وفهم هذه الأداة تجعله يُعد

= (٦٩٧٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، (٦٩٨١).

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، (٧٦٩٢).

نفسه لما هو آت، سواءً كان مستقبل عز وتمكين، أو مستقبل ابتلاء وامتحان، فإذا رأى المظلوم أنه ومن حوله من المظلومين لم يأخذوا بأسباب رفع الظلم ودفعه، أو فعلوا ما يستوجب غضبه سبحانه، فيستعد لزمن الابتلاء والعقوبة، وإن رأى أنهم قد أخذوا بأسباب رفع الظلم ودفعه، وقاموا بنصرته سبحانه، فليعدوا أنفسهم لمستقبل النصر والتمكين، فقد مكث النبي عليه الصلاة والسلام في مكة قرابة الثلاثة عشر عامًا يُعد أصحابه في زمن الابتلاء لزمن التمكين.

٨- معرفة السنن الإلهية في الظلم، والإيمان بها، والاستعداد للسير في ركابها، تجعل المظلوم يُسخّر برنامجه العملي لرفع الظلم بما يوافق سنن الله سبحانه، فحينما يعلم أن من سننه سبحانه بيان حال المجرمين، فليكن من أولوياته في زمن الابتلاء بيان حال الظالمين وتوثيق ظلمهم، ونشره حتى يستبين للناس، فيكون ذلك تمهيدًا لزوال الظالمين، وحينما يعلم أن من سننه سبحانه أنه يمحص عباده المؤمنين، ويميز خبيثهم من طيبهم، فليجعل من أولوياته في زمن الظلم، الثبات ومعرفة الناجين من التمحيص، المصطفين من التميز ليكونوا فريق رفع الظلم، وجيش مدافعة الظالمين، كما مر في جيوش يوشع بن نون، وطالوت عليهما السلام.

٩- معرفة سنن الله في الظلم، تسهل على الإنسان تَجَنّب مسببات وقوع العقوبة والبلاء، فإن الله يعاقب بالسيئة، ويأخذ بالمعصية، ويظهر الفساد بسبب ما كسبته أيدي الناس من ظلم يقول سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣]، وتجنب ذلك كله يجعل الإنسان في مأمن من عقوبة الله وعظيم سخطه سبحانه.

١٠- معرفة سنن الله في الظلم، تجعل الفرد يشعر بمسؤوليته الفردية تجاه الظلم، وأنه مطالب بدفع الظلم أو رفعه أو التقليل منه، أو الاستعداد وتربية النفس

المستضعفة المظلومة وتهيئتها لذلك بحسب قدرته، ومن ذلك نسبة أسباب وقوع الظلم لما كسبته يد الإنسان، يقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويقول ﷻ: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].



المطلب الثاني:
آثار السنن الإلهية في الظلم على المجتمعات

شمول السنن الإلهية وعمومها واطرادها يجعل ظهور أثرها في المجتمعات، أكثر من ظهوره في الأفراد، فالأمم والمجتمعات هي ميدان تأثير السنن الإلهية الأول، وغالب من درس السنن الإلهية كان مدار بحثه في السنن في الأمم والدول والمجتمعات، ومن هذه الآثار:

١- معرفة المجتمعات للسنن الإلهية في الظلم، والاهتداء بهديها، تجعلها في مأمن من عقوبة الله سبحانه ووقوع البلاء، فإن علم المجتمع أن من سننه سبحانه كون الظلم سببًا في ظهور الفساد، وتسليط الأعداء، ومجانبة الفلاح في الدنيا والآخرة، كان ذلك مدعاة لأن تجتهد الأمة كلها في رفع الظلم، وإرجاع المظالم إلى أهلها، وإقامة العدل بكل صوره، وإزالة الظلم بكل صوره، فإن فعلت استحقت الأمان، يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]

٢- معرفة المجتمعات بالسنن الإلهية تجعلها مهيأة لتواكب تلك السنن وتسير في ركابها، في بناء البرامج والمشاريع الإصلاحية، فإن علمت الأمة أن التدرج من سنن الله في التغيير، كان من الضرورة أن تكون مشاريع الإصلاح قائمة على التغيير بالتدرج، والارتقاء بالأمة في سلم الإصلاح، وتهيئتها لذلك عبر المشاريع التوعوية، والبرامج المتدرجة التي تؤتي ثمارها ولو بعد حين.

وإن علمت الأمة أن من سنن الله في المجتمعات أن الوحدة والاجتماع من أسباب القوة والنجاح، وأن التنازع والاختلاف من أسباب الفشل والاستبدال، يجعلها ذلك مهيئةً لتقوم بمشاريعها التنموية آخذة في الحسبان أسباب الوحدة والاجتماع، ونبذ ومعالجة كل ما يسبب الفرقة والاختلاف، فمواكبة السنن الإلهية والسير في ركابها والاهتداء بهديها صمام أمان للأمة، وعلامة على سيرها في طريق التمكين ورفع الظلم.

٣- معرفة المجتمعات بالسنن الإلهية والسير في ظل هديها يجنبها أي مصادمة لهذه السنن، وهو ما يعد بدوره مصادمة للفطرة التي فطر الله الناس عليها يقول سبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠]، فتكون نتيجة كل مشروع أو برنامج يقوم على مصادمة الفطرة الفشل والنتائج السيئة على المجتمع عامة.

فنجد أن الإباحية في ممارسة الجنس خارج عقد الزوجية في كثير من الأمم الكافرة أدى إلى أزمات اجتماعية واقتصادية لم تكن في حسبان من دعا إلى ذلك، فانخفضت معدلات الزواج، وارتفعت معدلات الطلاق، وقل النسل، وانتشرت الأمراض البدنية والنفسية، بسبب ذلك المشروع الذي لم يراع فطرة الله التي فطر الناس عليها، وسنته في خلقه سبحانه.

ونجد أن الأمم التي حاولت إلغاء الملكية الفردية، وإلغاء الفروق الفردية بين الناس، كما في التجربة الماركسية، كانت نتائج فعلهم كارثية بسبب محاولتهم مصادمة فطرة الله التي فطر الناس عليها.

٤- إن معرفة المجتمعات بالسنن الإلهية، وأن منها أن الله يستدرج الأمة الظالمة ويمهلها ويملي لها ثم يأخذها بغتة، يجعلها ذلك جديرة بأن لا تأمن من مكر الله، وأن لا تستدل بإمهال الله لها على رضاه عنها، بل تعيد حساباتها، وتقوم مجتمعاتها على ضوء كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولا يغرهم إمهال الله ولا إملاؤه، فإنه سبحانه يملي ويمهل ويستدرج الأمة الظالمة ثم يأخذها أخذ عزيز مقتدر، يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

٥- إن معرفة المجتمعات بالسنن الإلهية، وأنها سنن عامة شاملة في كل أمة، يجعلها ذلك أمة مهيأة ومستعدة للاستفادة من تجارب الأمم الناجحة، وتتجنب التجارب الفاشلة، فسنن الله جارية في كل الخلق، وماضية في كل الأمم، والاطلاع على تجارب الأمم هو اطلاع على نتائج سنن الله فيها، وتحقيق لأمره سبحانه بالنظر والسير في الأرض يقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

٦- إن معرفة المجتمعات بسنن الله في التغيير، وارتباطه بمدى تغيير المجتمعات لأنفسها، وما يترتب عليه من تحولها من الاستضعاف إلى التمكين، أو من التمكين إلى الاستضعاف والتخلف، تدفعها تلك المعرفة إلى القيام بإحداث التغيير من داخل المجتمعات، حتى يتم التغيير الخارجي، ويجعلها تقف وبحزم مع كل تغيير يستجلب غضب الله وانتقامه، يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]،

٧- إن معرفة المجتمعات بسنن الله في الظلم، والإيمان بها، يجعلها توقن بخطورة الظلم في الأمة، مما يستوجب عليها إنشاء مؤسسات رقابية تحميها من الفساد والظلم، حماية للأمة من آثاره التي لن يسلم منها أحد إذا انتشر الظلم، فعن زينب بنت جحش رضي الله عنها، قالت قلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[1].

٨- إن معرفة استمرارية ودوام السنن الإلهية في الظلم يبين للأمة خطوطًا عامة لما سيكون عليه مستقبل الأمة، فيعينها ذلك على استشرافه ورسم استراتيجياتها المستقبلية في دفع الظلم ومسبباته، ورفع الظلم وموجباته، ويعطيها كذلك خطوطًا عامة لما ستكون عليه الأمم الأخرى الظالمة، فيعينها ذلك على رسم خططها، وإعداد مجتمعها لمواجهة المستقبل، مهتدية بسنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير.

٩- إن معرفة الأمة بسنة الله في اتخاذ الأسباب وربطها بالنتائج، يجعل الأمة لا تركن إلى ما لديها من حق وإيمان، وتترك الأسباب الحسية المادية التي جعلها الله مشاعة للأمم، يقول ابن القيم رحمه الله: «وقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة، كل ذلك مرتبطًا بالأسباب قائمًا بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات، والشرع كله أسباب ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، (٣١٦٨)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، (٧٤١٦).

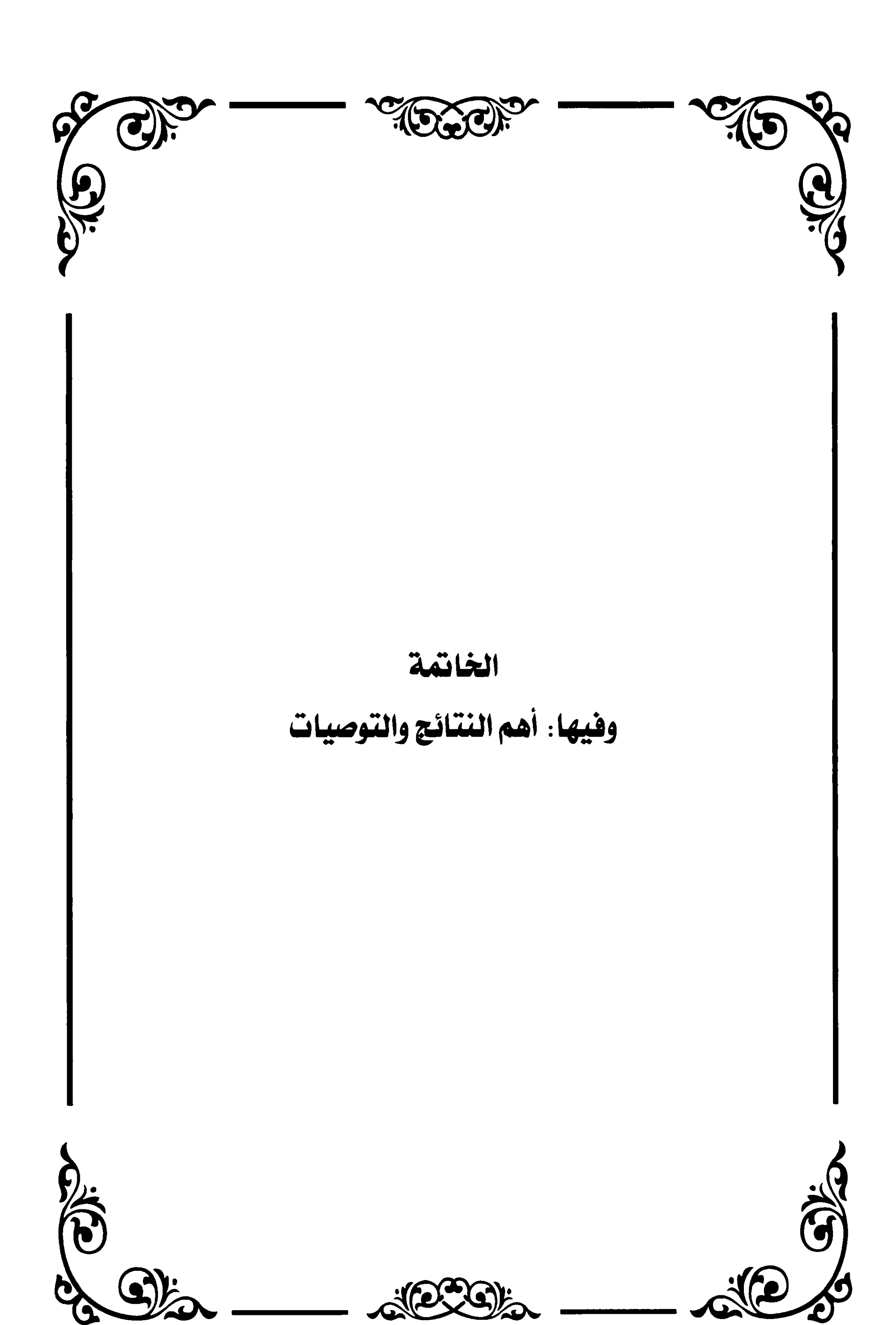
فالأسباب محل الشرع والقدر»[١]، ومن ذلك أن نصر الله وتأييده لأهل الحق يكون بعد استفراغهم لطاقاتهم في فعل الأسباب، وبذلهم الجهد في اتقان وإحسان استخدام هذه الأسباب، وإن كانت الأسباب التي تملكها الأمة قليلة مقارنة بما تملكه الأمم الأخرى، إلا أن بذل الجهد واستفراغ الطاقة في اتخاذ الأسباب، سيكمله تأييد الله ونصره لعباده المؤمنين.

١٠- إن معرفة المجتمعات بسنن الله في الظلم، وأن منها أن المصلحين هم صمام الأمان فيها كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]، يجعل الأمة تحتفي بكل مبادرة للإصلاح، وكل برنامج يهدف إلى رفع الظلم أو دفعه، وتشيد بالمصلحين والمحتسبين أفرادًا ومؤسسات، حفاظًا على الأمة بمجموعها.

إن هذه الأثار لا يتوقف وقوعها على مجرد العلم والمعرفة فقط، ولكن العلم بالسنن الإلهية ومعرفة تطبيقاتها تهيئ الأمة لتتكون عندها القابلية للاهتداء بهدي هذه السنن، حتى تتمثل هداياتها ودلالاتها، فيحصل لها ثمرة النظر والاعتبار في السنن الإلهية عمومًا، والسنن الإلهية في الظلم على وجه الخصوص.



(١) ابن القيم «شفاء العليل» ص (١٨٨).



الخاتمة

وفيها: أهم النتائج والتوصيات

وفي ختام هذا البحث، وبعد جولة بين مباحثه ومطالبه، والتي اشتملت على بيان مفهومي الظلم والسنن، وأهمية السنن وخصائصها، وعرضٍ لأهم السنن الإلهية في الظالم والمظلوم، وعرضٍ لأهم السنن العامة المؤثرة في الظلم، وقراءة سننية لبعض أحداث التاريخ الهامة، في تاريخ الأمم قبل الإسلام، وسيرة النبي ﷺ، وبعض الأحداث المهمة في التاريخ الحديث، وعرضٍ لأهم آثار السنن الإلهية في الظلم على الفرد والمجتمع، وفي الختام أصل إلى استخلاص أهم نتائج هذا البحث، والتي تلخصت فيما يلي:

١- إن مفهوم السنن في اللغة مداره على: الاطراد والتوالي في السيرة والطريقة.

٢- إن مفهوم السنن الإلهية في الاصطلاح هو: القوانين المطردة الثابتة التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وتحكم حركة التاريخ، وتتحكم بالدورات الحضارية.

٣- إن الظلم في اللغة مداره على: وضع الشيء في غير موضعه.

٤- إن الظلم في الاصطلاح هو: الظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بزيادة، أو نقصان، وإما بعدول، عن وقته أو مكانه.

٥- إن تعريف السنن الإلهية في الظلم هو: القوانين المطردة الثابتة التي تحكم حركة الظلم والظالمين في كل زمان ومكان.

٦- إن أهمية السنن الإلهية يتلخص في:

١- نسبتها لله سبحانه، فهي سنن الله وأفعاله في خلقه.

٢- الأمر المتكرر بالاعتبار بها، يدل دلالة كبيرة على أهميتها.

٣- أن الوعيد بها يدل على تحقق وقوعها، فوعده حق، وميعاده لا يتخلف.

٤- كثرة ورود قصص الظالمين في القرآن وعقوباتهم.

٥- عناية العلماء بها، فقد امتلأت كتب التفسير والتاريخ ببيان سنن الله في الظلم والظالمين.

٦- السنن الإلهية مهمة في فهم التاريخ وتفسيره، فهي منارات هداية يهتدي بها.

٧- كثرة الظلم في هذا الزمن بشتى صوره، يجعل من الضرورة فهم وتأمل سننه في الظلم والظالمين.

٧- إن خصائص السنن الإلهية هي:

١ - الربانية، فهي سنن الله، ومصدرها كتابه وسنة نبيه ﷺ، وهي تدبيره النافذ، وقضاؤه العادل في خلقه.

٢- الثبات والاطراد، فهي سنن ثابتة لا تتبدل، مطردة لا تتخلف.

٣- العموم والشمول، فهي سنن عاملة في كل زمان ومكان، وشاملة لكل أمة وملة.

٤- الدنيوية فهي سننه سبحانه في الحياة الدنيا.

٨- إن من السنن الإلهية في الظالم هي:

١ - أن الله يمهله ويؤخره، حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

٢- أن الله يستدرجه ويملي له حتى يأتيه العذاب بغتة.

٣- أن الخسران والخيبة هي مصير كل ظالم مهما علا شأنه وارتفع أمره.

٤- أن الله يسلط على الظالم من يسومه سوء العذاب، في الدنيا، وقد يكون من يسلطه الله عليه ظالمًا مثله.

٥- أن من سننه سبحانه بالظالمين أنه يهلكهم ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

٦- أن من سننه سبحانه بالظالمين أنه يستبدلهم بغيرهم.

٩- إن السنن الإلهية في المظلوم هي:

١- أن من حكمته سبحانه أنه يبتلي المظلوم ويمتحنه.

٢- أن من سننه سبحانه أن من بذل الجهد واستفرغ الوسع، استحق النصر والتأييد من الله في رفع الظلم أو دفعه.

٣- أن من سننه سبحانه نصره لعباده المظلومين إذا قاموا بأسباب النصر الحسية والمعنوية.

١٠- إن السنن الإلهية العامة المؤثرة في الظلم هي:

١- أن سنة التدافع من سنن الله العامة المؤثرة في الظلم، فمن حكمته وسنته سبحانه الصراع بين الحق والباطل، والتدافع بينهما.

٢- إن سنة التغيير من السنن العامة ذات التأثير الكبير على الظلم، فإن الله لا يوقع البلاء على الناس ولا يسلب منهم النعم إلا بسبب ما غيروا

من أنفسهم، ولا يُرفع بلاؤه عنهم إلا بتغيير أنفسهم إلى الأحسن.

١١- إنه يمكننا أن نقرأ التاريخ قراءة سننية عن طريق بعض مراحله وتطبيقاته، لنبين اطراد وشمول وعموم هذه السنن في كل زمان ومكان وفي كل ملة وأمة، ومنها:

١- تاريخ الأمم قبل الإسلام، من خلال دراستنا للأحداث التالية:

١- تيه بني إسرائيل.

٢- ذو القرنين.

٣- معركة طالوت وجالوت.

٢- السيرة النبوية من خلال، من خلال دراستنا للأحداث التالية:

١- حصار الشعب.

٢- الهجرة النبوية.

٣- غزوة حنين.

٣- التاريخ الحديث من خلال دراستنا للأحداث التالية:

١- سقوط الدولة العثمانية.

٢- سقوط الاتحاد السوفييتي.

١٢- إن لمعرفة السنن الإلهية آثاراً مهمة على الفرد وهي:

١- أنها تكسب المسلم الطمأنينة.

٢- أنها تمنح العارف بها الإيجابية والفاعلية.

٣- أنها تورث التفاؤل.

٤- أنها تعين على استشعار معاني أسماء الله وصفاته.

٥- أنها تمكن المسلم من التنوع في العبادات في حال الاستضعاف والتمكين.

٦- أنها تعين على تصور المستقبل على ضوء السنن الإلهية.

٧- أنها تعين على فهم التاريخ وتفسيره مهتديًا بالسنن الإلهية.

٨- أنها تستوجب السير في ركابها، وتجنب مصادمتها.

٩- أنها تستوجب منا تجنب الظلم فهو من أكبر مسببات الإهلاك والعقوبة في الدنيا والآخرة.

١٠- أنها تؤكد على استشعار المسؤولية الفردية، وأن الإنسان يعاقَب في الدنيا والآخرة بما كسبت يداه.

١٣- إن للسنن الإلهية آثارًا مهمة على المجتمع وهي:

١- أنها تعين الأمة على اتخاذ تدابير ومشاريع تمنعها من الوقوع في مسببات الإهلاك والعقوبة، وأهمها الظلم.

٢- أنها تعين الأمة على أن تكون مشاريعها الإصلاحية التنموية مواكبة للسنن الالهية وسائرة في ركابها.

٣- أنها تعين الأمة على أن تتجنب مصادمة السنن الإلهية في مشاريع الاصلاح.

٤- أنها تعين الأمة على ألا تأمن من مكر الله، فعموم السنن وشمولها يجعلها تستحق العقوبة، إن توفرت أسبابها.

٥- أنها تعين الأمة على أن تستفيد من تجارب الأمم الناجحة، فيما لا يخالف شرع الله، وهذا من ثمار السير في الأرض.

٦- أنها تعين الأمة على أن تبدأ بالإصلاح والتغيير من الداخل.

٧- أنها تعين الأمة على الأمة أن تحارب الظلم.

ومن التوصيات المهمة التي أختم بها هذا البحث المتواضع:

١- إن السنن الإلهية لا زالت بحاجة إلى مزيد من البحث والتأليف والدراسة، فالكتب المؤلفة والرسائل المسجلة لا يتناسب عددها مع أهمية الموضوع، وعظيم فائدته، مع توفر المادة العلمية في كتب المفسرين كمحمد رشيد رضا في تفسيره المنار، والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير، وغيرهم من المفسرين السابقين، وكذلك فإن كتب المؤرخين كابن خلدون وغيره مليئة بالتأصيل والتنظير والتقعيد في السنن الإلهية، وهذا يحتاج لجهود كبيرة في جمع هذا الشتات والتوليف بينه لنخرج بموسوعة خاصة بالسنن الإلهية في الأنفس والمجتمعات.

٢- إن السنن الإلهية لا زالت من العلوم النخبوية بين الباحثين وطلاب العلم والمثقفين، أما بقية المجتمع فيجهل الكثير عنها، وهذا يستوجب على الدعاة والمصلحين نشرها بين الأفراد بما يتناسب مع ثقافتهم، فإصلاح المجتمعات والنهوض بها مسؤولية الجميع، وليست مسؤولية النخب فقط، فوعي الجماهير بالسنن الإلهية يسهل مهمة الإصلاح على المصلحين.

٣- إن الأمة أفرادًا ومجتمعات ودولاً تعاني من أثر الظلم، الفردي والجماعي، ولا يرفع الظلم عن هذه الأمة - بعد توفيق الله - إلا بإنشاء مؤسسات حكومية وخيرية، وإنشاء منظمات رسمية وشعبية، تتخصص في دفع الظلم والوقاية منه، ورفعه عن المظلومين، والأخذ على يد الظالمين.

وأخيرًا: أسأل الله أن يجعل هذا العمل عملًا صالحًا متقبلًا، وأن يجزي كل من ساعدني ووجهني فيه خير الجزاء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



فهرس المراجع والمصادر

(١) ابن جزيء الكلبي ومنهجه في التفسير، علي الزبيري، دار القلم،ط١، ١٤٠٧هـ

(٢) إحياء علوم الدين، محمد الغزالي، دار المعرفة - بيروت.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى دار احياء التراث العربي.

(٤) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، أحمد محمد كنعان، ط١. ١٤١١هـ. كتاب الأمة.

(٥) أساس البلاغة، الزمخشري، دار الكتب، بيروت.

(٦) الاستقامة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ط١ - ١٤٠٣هـ.

(٧) أسد الغابة، ابن الأثير، دار إحياء التراث العربي، مصورة عن طبعة دار الشعب.

(٨) «الإعجاز السنني في القرآن» بحث: في المؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن في الكويت عام ١٤٢٧هـ محمد أمحزون.

(٩) الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥ - ١٩٨٠م.

(١٠) إغاثة اللهفان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(١١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، المكتبة العلمية، بيروت.

(١٢) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني،

الملقب بمرتضى الزبيدي، الناشر دار الهداية.
(١٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية، المعروف بالتحفة الحلمية، لإبراهيم بك حليم، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٨٦م.
(١٤) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري، مكتبة دار التراث.
(١٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، مطبعة مصطفى محمد، ط١، ١٣٥٥هـ.
(١٦) التعريفات، القاضي علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٢/ ١٤١٣ هـ.
(١٧) تفسير البيضاوي، دار الكتب العربية الكبرى.
(١٨) تفسير التاريخ، أ.د. نعمان عبدالرزاق السامرائي، ط١، ١٤٢٧ه.
(١٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
(٢٠) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية.
(٢١) التهذيب، محمد بن أحمد الأزهري-ت رشيد عبدالرحمن العبيدي، ط١٩٧٥م.
(٢٢) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي، دار المدني، ١٤٠٨هـ.
(٢٣) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ.
(٢٤) جامع الرسائل، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار العطاء، الرياض، ط١ - ١٤٢٢هـ.
(٢٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.
(٢٦) جلاء الأفهام، ابن القيم، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
(٢٧) الدر المصون، السمين الحلبي، دار القلم، دمشق.

(٢٨) دراسة في السيرة النبوية، عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، ط١٢، ١٤١٢هـ
(٢٩) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، عبد الحليم عويس.
(٣٠) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، عبدالعزيز الشناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٨٦م.
(٣١) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، د. علي محمد، مؤسسة اقرأ.
(٣٢) الدولة العثمانية والغزو الفكري، خلف الوذيناني، مطبوعات جامعة أم القرى،١٤١٧هـ.
(٣٣) روح المعاني، الألوسي، مصورة بيروت عن الطبعة المنيرة بمصر.
(٣٤) الروض الأنف، السهيلي، الناشر رضا توفيق عفيفي.
(٣٥) زاد المسير، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.
(٣٦) زاد المعاد، ابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
(٣٧) السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ،الرياض.
(٣٨) سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر، بيروت، ط٣ - ١٣٩٩هـ.
(٣٩) السنن الاجتماعية في القرآن، محزون، دار طيبة، ط١، ١٤٣٢هـ.
(٤٠) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة، شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، مكتبة الرشد، ١٤٢٥هـ
(٤١) السنن الإلهية في السيرة النبوية، رشيد كهوس دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ٢٠١٠م.
(٤٢) السنن الإلهية في الأمم والأفراد أصول وضوابط، مجدي عاشور،، دار السلام،ط٣، ١٤٢٨هـ.

(٤٣) السنن الإلهية في تغيير المجتمعات في ضوء القرآن، أيمن المغربي، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى.

(٤٤) السنن الإلهية، عبد الكريم زيدان، الرسالة، ط٣، ١٤١٣هـ.

(٤٥) سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، طبع مصطفى الحلبي بالقاهرة.

(٤٦) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٧هـ.

(٤٧) سنن الله في إحياء الأمم، حسين شرفة دار الرسالة ناشرون، ط الأولى ١٤٢٩هـ.

(٤٨) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، د.علي محمد، دار الإيمان، ط٢٠٠٢م.

(٤٩) السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة، بيروت.

(٥٠) شرح مختصر خليل، الخرشي، دار الفكر للطباعة، بيروت.

(٥١) شفاء العليل، ابن القيم، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٥٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار ابن حزم، بيروت، ط١ - ١٤١٧هـ.

(٥٣) الصحاح في اللغة، لإسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣ - ١٤٠٤هـ.

(٥٤) صحيح ابن حبان، لأبي حاتم محمد بن حبان البستي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ١٤١٢هـ.

(٥٥) صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، طبع المنيرة بالقاهرة، مصورة المكتبة الإسلامية باستنبول سنة ١٩٧٩م عن طبعة اسطنبول في سنة ١٣١٥هـ.

(٥٦) صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، طبع عيسى الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٧٤هـ.
(٥٧) الظلم أنواعه وآثاره في ضوء القرآن، سعيد الرحمن خاطر زمان، رسالة ماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
(٥٨) عمر بن عبدالعزيز معالم الإصلاح والتجديد، د.علي محمد، دار المعرفة.
(٥٩) عوامل انهيار الدولة العثمانية، علي حسون، ط المكتب الإسلامي دمشق، ط١.
(٦٠) العين، الفراهيدي، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت.
(٦١) الفصول في سيرة الرسول، ابن كثير، دار ابن حزم.
(٦٢) فقه النصر والتمكين في القرآن، د.علي محمد، المكتبة العصرية.
(٦٣) فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان، مؤسسة الريان، ط٢، ١٤١٩هـ.
(٦٤) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ - ١٤٠٧هـ.
(٦٥) قتلة الأمم، روبرت كونكوست، ترجمة صادق عودة، ط ١، ١٤٠٨هـ.
(٦٦) لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢ - ١٤١٢هـ.
(٦٧) مجلة المنار، محمد رشيد رضا.
(٦٨) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
(٦٩) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
(٧٠) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة وزارة الأوقاف القطرية.
(٧١) المستدرك على الصحيحين، للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.

(٧٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت، ١٣١٣هـ.
(٧٣) مع قصص السابقين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط ١٤٢٥هـ
(٧٤) المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، نسخة إلكترونية غير مطبوعة.
(٧٥) معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط١ - ١٤١٢هـ.
(٧٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، أخرجه إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، ت عبد السلام هارون.
(٧٧) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر- بيروت، ط١/ ١٣٩٩هـ
(٧٨) مفاتيح الغيب، الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
(٧٩) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، ت: علي بن حسن الحلبي الأثري، دار ابن عفان - الخبر، ط١/ ١٤١٦هـ.
(٨٠) المفردات، الراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق.
(٨١) مفهوم النصر، عبدالله الجاسر، رسالة ماجستير في جامعة الإمام.
(٨٢) المقدمة، ابن خلدون، مكتبة لبنان.
(٨٣) منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مؤسسة قرطبة، ط١.
(٨٤) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، مؤسسة الرسالة - لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

فهرس الموضوعات

